في رحاب الهدى النبوي

اختيار وشرح

الدكتور محمد السعدي فرهود

١٣٨٩ هـ - ١٩٧٠ م

مطبعة الرسالة
٣ شارع حمودة المقاول - عابدين
القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

سيدى ، يا رسول الله ؛

التحيات لله ، والصلوات الطيبات .

السلام عليك — أيها النبى — ورحمة الله ، وبركاته .

السلام علينا ، وعلى عباد الله الصالحين .

أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك عبد الله ورسوله .

اللهم ، صلى وسلم وبارك على سيدنا « محمد » ، وعلى آله ، وصحبه ، وتابعيه ، . . . ، إلى يوم الدين .

وبعد ؛

فهذه أمثلة من هديك ، وأقباس من نورك ، فيها الدواء الناجع لأدواء هذه الأمة ، وفيها سعادة المؤمنين ، وهداية الحائرين . قصدت أن أجلوها قدر الطاقة ، وأن أمس جمالها وكمالها ، وأقرب من معانيها ، بلفظ ، ما أظننى إلا متطفلا به على بلاغتك .

وأرجو أن يتلقى هذه الأمثلة والأقباس قارئها بالقبول ، وأن يزداد بها هدى ونورا ، وأزداد بها علما ، « وقل : رب ، زدنى علما » .

القاهرة { شوال ١٣٨٩ هـ
يناير ١٩٧٠ م }

السعدى

الحديث الأول

عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « يقول الله — عز وجل — : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إليّ شبرا تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعا ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » .

رواه البخاري

اللغة : الظن : خلاف اليقين ، وقد يستعمل بمعنى اليقين ، كقوله تعالى: « الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم » . النفس (هنا) : بمعنى الذات . الملأ : القوم والجماعة والعلية والأشراف . الباع : مقدار طول ذراعي الإنسان وعضديه وعرض صدره . الهرولة : المشي فيه إسراع ، ويقال : هو سير بين المشي والعدو .

النحو : خير : أفعل تفضيل من (خار) ، حذفت الهمزة منه لكثرة استعماله ، ومثله (شر) . شبرا وذراعا وباعا : منصوبات على التمييز ، مميزها كلمة (مقدار) منوية .

البلاغة : في إسناد العندية والمعية والتقرب والهرولة إلى الله — سبحانه وتعالى — مجاز ، إما على سبيل الاستعارة ، وإما على سبيل المشاكلة ، أو أنها أطلقت وأريد منها لازمها ، فالعندية لازمها القرب ،

والمعية لازمها الإعانة ، والتقرب لازمه الرحمة ، والهرولة لازمها الإسراع إلى الإثابة .

الفكرة : إن صلة الإنسان بربه صلة مباشرة ، لا تحتاج إلى أكثر من أن يؤدى الإنسان حق الله عليه ، وبمقدار حرص الإنسان على قيام هذه الصلة ودوامها ورعايته إياها بأداء الحقوق — يسبغ الله عليه الرحمة والهداية والحياطة والثواب .

البيان :

١ — إن الله — سبحانه وتعالى — يهيء لعبده الإنسان أن يصله ، وأن تكون صلته به صلة مباشرة ، ليس فيها وساطة ، ولا تحجزها حجابة ، والله أقرب إلى عبده من حبل الوريد ، فعلى هذا العبد أن يتجه فى سعيه وفى عمله وفى عبادته إلى الله اتجاها خالصا من كل شائبة ، قال الله — تعالى — : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى ؛ لعلهم يرشدون » (البقرة ١٨٦) ، فالله قريب من عباده ، يجيب دعوة من يدعوه منهم ، فليستجيبوا له وحده ، فهو وحده القدير على إجابتهم ، وليؤمنوا به وحده ، فهو وحده الحقيق بإيمانهم ، وفى ذلك رشادهم ، وصلاح أحوالهم ، واستقامة أمور دينهم ودنياهم .

٢ — ألا . ما أحلى هذه الصلة بين الإنسان وربه ! ، وما أجل قدرها ! ، وما أعظم أمرها ! ، وما أسعد من يرضى الله عنه ! ؛ فهو يقدر رضا الله عنه ، وغفرانه له ، وإقباله عليه ، وذلك لا يكون إلا باجتهاد الإنسان فى الطاعة أو العبادة ، والإخلاص فيها ، وصدورها عن أعماق نفسه المؤمنة المطمئنة ، التى تحذر الرياء والنفاق ، وتحذر التردى فى الشهوات والشبهات . حينئذ يطمئن الإنسان إلى أن الله معه ، والله يكون معه برحمته ورفقه وعطفه ، وهذه هى المعية الخصوصية التى يذكرها الحديث ،

ويتفضل الله بها على عباده فوق المعية العامة التى يذكرها الله فى القرآن الكريم فى قوله «وهو معكم أينما كنتم» (الحديد ٤)، وتلك المعية الخصوصية لا يحظى بها إلا كل مجتهد فى الطاعة والعبادة، مخلص فيها، صادر فيها عن نفس مؤمنة مطمئنة، على ما ذكرنا، فيكون من يسبغ الله عليهم الثواب، ويشملهم بحياطته، ويظلهم بظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، ويفيء عليهم من رضوانه، ويعينهم على ما هم بصدده من فعل الخير والطاعة والبر.

٣ — ولقد يبلغ الحب بين الإنسان والإنسان درجة تمكن نفسيهما من أن تتخاطبا من وراء أميال بعيدة، فتسأل نفس وتجيب أخرى، أو تشكو فتشكى، أو تعتب فتعتب.. الخ ما يراود أحلام الناس وأمانيهم. فما بالك فى استجابة الله - سبحانه وتعالى - فى علاه لعبد يذكره فى نفسه لا يجاوز ذكره إياه ذاته، يستجيب الله إلى هذا العبد الذاكر استجابة أسرع من رجع الصدى، إذ يذكره الله فى نفسه وذاته، فإن كان العبد الذاكر يعلن بالقدوة والمثل ذكر الله، ويطلع منه ملؤه وجماعته على أمر العلاقة بينه وبين ربه؛ فالله أكرم من عبده، فإنه يجزيه عن هذا الذكر العلنى، ويكافئه بأن يذكره فى ملأ خير من ملئه، وهو قطعا ملأ خير من أى ملأ بشرى، لأن فيه الملائكة والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين «وحسن أولئك رفيقا» (النساء ٦٩)، ولأن فيه الله الذاكر «ومن أصدق من الله قيلا» (النساء ١٢٢).

٤ — ولقد يكون ذكر الإنسان مجرد الذكر، ويشمل التأمل، والنظر، والاعتراف بالربوبية، وهو مرضى من الله، قال - جل شأنه -: «فاذكرونى أذكركم، واشكروا لى ولا تكفرون» (البقرة ١٥٢) وقد يكون ذكرا مرعيا فى كافة الأعمال والعلاقات، حين يرصد العبد ربه، ويرقبه فى تصرفاته، ويحسن، و «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن

تراه فإنه يراك » ، والإحسان يقتضى مراقبة الله وخشيته ، فى كل فعل ، وقول ، وحركة ، وسكنة ، ولفتة ؛ فنى العبادة إحسان ، وفى بر الناس إحسان ، وفى الصبر إحسان ، وفى العفة إحسان ، وفى إنجاز الأعمال على وجهها إحسان ، وفى إيفاء الكيل والميزان إحسان ، وفى العلاقة الحسنة بين الرجل وامرأته إحسان . . . الخ . وعلى المؤمن ألا ييئس من ثواب الله . يقول « ابن عطاء الله السكندرى » : إذا دعوت الله فلا تيئس من الإجابة ، فإنه قد ضمن لك الإجابة ، فإن فاتتك فى دار الفناء ، فلسوف تواتيك فى دار الجزاء ، ولا تخش من ذى العرش إقلالا . وإذا استمسك العبد بالتقوى كان من أولياء الله ، الذين أعطاهم البشرى ، فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، « ألا . إن أولياء الله لا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم » ، (يونس ٦٢ - ٦٤) .

٥ — ومن كرم الله - سبحانه - بعباده ، الذين يرجون رحمته ، ويبغون ثوابه ؛ ما يصوره الحديث من التقرب . أرأيت الله يتقرب إلى عبده كلما تقرب عبده إليه ؟ ! . أرأيت مسافة هذه التقرب كم تكون ؟ ! . قرب شبر من العبد يكافئه الله من جانبه بالقرب مقدار ذراع ، وذراع من العبد يساوى حركة الله مقدار باع ، والمشى من قبل العبد يستدعى الهرولة من قبل الرب . وليس الأمر أمر شبر وذراع وباع ومشى وهرولة على الحقيقة ، وإنما المقصود التمثيل ، والمعنى — والله أعلم — أن من يتقرب إلى الله بقليل من الطاعة يجزيه الله عنه كثيرا من الثواب ، وكلما زاد الإنسان فى طاعة الله زاد الله فى ثوابه عن هذه الطاعة ، وإن جاءت طاعة العبد وبره على الأناة فإن رحمة الله وثوابه يأتيانه على السرعة . وهذا هو الذى يقتضيه اعتبار المجاز فى إسناد العندية والمعية والتقرب والهرولة إلى جانب الله — جل شأنه .

٦ - « يأيها الناس ؛ أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد » (فاطر ١٥) . وهذه مائدة الفضل قد أعدها الله لعباده ، ولم يحرم منها إنسانا يؤدى حق الله عليه . وحق الله طاعته وعبادته « وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ماأريد منهم من رزق ، وماأريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتقين » (الذاريات ٥٦ - ٥٨) . وليست العبادة المطلوبة تقتضى الزهد فى الحياة ، والانقطاع عنها ، والرهبانية ، وإنما هى عبادة تقتضيها الحياة ، والسعى فيها ، والمشى فى مناكبها . وباب الكريم لم يغلق ، وكيف يغلقه صاحبه الذى يقول : « وماتقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مماافترضته عليه ، ومايزال العبدى يتقرب إلى بالنوافل ؛ حتى أحبه ؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه ، وماترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته » . ومحور هذا كله هو الحفظ والصيانة ، وأى عبد لايرجو أن يكون الله حافظه وأن يصون الله حواسه ، ويبارك فيما تفعله أو تدعه ، و « كل الناس - فيما يروى عن رسول الله - يغدو فبائع نفسه ، فمعتقها ، أو موبقها » ، فمن يبع نفسه للشيطان والهوى فهو موبقها ، ومموردها موارد التهلكة ، ومن يكن لله سعيه ، وتنصرف إليه طاعته ، وتتوجه إليه نياته ؛ يبع نفسه لله ، فهو معتقها من العذاب . وما أشرف بيعاً الله فيه هو المشترى ، والمؤمن هو البائع ، والتجارة بين الله والمؤمن تجارة رابحة كاسبة ؛ « يأيها الذين آمنوا ؛ هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم ، إن كنتم تعلمون » (الصف ١٠-١١) . وعندما يتصل أمرنا بأمر الله تستقر نفوسنا ، وتبلغ درجة الطمأنينة ، والرضا .

٧ - يقول « الغزالى » : - فى كتاب الخوف والرجاء(١) - « العبد إذا بث بذر الإيمان ، وسقاه بماء الطاعات ، وطهر القلب من شوك الأخلاق الرديئة ، وانتظار من فضل الله - تعالى - تثبيته على ذلك إلى الموت ، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة ؛ كان انتظاره رجاء حقيقياً ، محموداً فى نفسه ، باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان فى إتمام أسباب المغفرة إلى الموت ، وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات ، أو ترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق ، وانهمك فى طلب لذات الدنيا ، ثم انتظار المغفرة ؛ فانتظاره حمق وغرور . قال - صلى الله عليه وسلم - : « الأحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الجنة » ، وقال - تعالى - : « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا »(٢) » وقال - تعالى - : « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ، يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويقولون : سيغفر لنا »(٣) . وذم الله - تعالى - صاحب البستان ، إذ قال لصاحبه وهو يحاوره : « أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا * ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال : ماأظن أن تبيد هذه أبداً * وماأظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلبا »(٤) . فإذن : العبد المجتهد فى الطاعات ، المجتنب المعاصى ، حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة ، وماتمام النعمة إلا بدخول الجنة ... وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب ، ولذلك قال - تعالى - : « إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله »(٥) - معناه : أولئك

---

(١) إحياء علوم الدين - طبعة كتاب الشعب - ١٢/٢٣٠٨ .

(٢) مريم ٥٩ .

(٣) الأعراف ١٦٩ .

(٤) الآيات من سورة الكهف ٣٤ - ٣٦ ولقد نقلنا النص ، بينما اكتفى الغزالى بطرف منه . واقرأ بقية الآيات إلى قوله تعالى : « وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ماأنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول : ياليتنى لم أشرك بربى أحدا » لتدرك موضع العظة والعبرة .

(٥) البقرة ٢١٨

يستحقون أن يرجوا رحمة الله ، وماأراد به تخصيص وجود الرجاء ، لأن غيرهم أيضا قد يرجو ، ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء . فأما من ينهمك فيما يكرهه الله — تعالى — ولايندم نفسه عليه ، ولايعزم على التوبة والرجوع ؛ فرجاؤه المغفرة حمق ، كرجاء من بث البذر فى أرض سبخة ، وعزم على ألا يتعهده بسقى أو تنقية . قال « يحيى بن معاذ » : من أعظم الاغترار عندى التمادى فى الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة ، وتوقع القرب من الله — تعالى — بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر النار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصى ، وانتظار الجزاء بغير عمل ، والتمنى على الله — عز وجل — مع الإفراط ؛

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لاتجرى على اليبس » .

الحديث الثانى

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « إن الله عز وجل – يقول يوم القيامة: يابن آدم ؛ مرضت فلم تعدنى ، قال يارب ، كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟! . قال : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده ؛ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده . يابن آدم ؛ استطعمتك فلم تطعمنى . قال : يارب ؛ كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ ! قال: أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ؛ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى . يابن آدم ؛ استسقيتك فلم تسقنى ، قال : يارب ؛ كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ ! قال استسقاك عبدى فلان فلم تسقه ؛ أما إنك لو أسقيته وجدت ذلك عندى » ،

رواه مسلم

الحديث الثالث

عن عمر — رضى الله عنه — قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا ، وتروح بطانا » .

رواه أحمد وابن ماجه والترمذى

اللغة : تغدو : تذهب فى الغدوة ، وهى أول النهار . خماصا : جمع خميص ، والخميص هو الفارغ البطن . تروح : ترجع فى الروحة ، وهى آخر النهار . بطانا : ممتلئة بطونها ، واحدها بطين ، والبطين ذو البطنة ، وهى الكظة والامتلاء من الطعام .

النحو : لو أداة شرط غير جازمة ، تختص بالفعل الماضى غالبا ، وقيل : تكون شرطاً فى المستقبل فتدخل على المضارع ، كما فى قول أبى صخر الهذلى (وقيل : المجنون) :

ولو تلتقى أصداؤنا بعد موتنا ومن دون رمسينا من الأرض سبسب
لظل صدى صوتى وإن كنت رمة لصوت صدى ليلى يهش ويطرب

وتعقد (لو) بين فعل الشرط والجواب عقد السببية والمسببية ، والمشهور أنها حرف امتناع لامتناع ، أى يمتنع جوابها لامتناع شرطها ، وفى النص على أنها لهذا الامتناع جدال .

وتقع بعدها (أن) كثيرا ، فتكون مع معموليها مصدراً مؤولا ، فى محل رفع عند الجميع ، قدر مبتدأ لايحتاج إلى خبر لاشتمال صلتها على المسند والمسند إليه . وقدر مبتدأ خبره محذوف وموقعه التقديم فيقال هنا : (لو ثابت توكلكم) ، أو التأخير فيقال : (لو توكلكم ثابت) . وقيل

يقدر المصدر المؤول فاعلا لفعل محذوف فيقال هنا : (لو ثبت توكلكم) ، ويرجح هذا إبقاء (لو) على اختصاصها بالفعل .

خماصا و بطانا : كلاهما حال من الفاعل المستتر العائد على الطير .

البلاغة : جاءت كلمة (حق توكله) إطنابا ، وهو إطناب قصد به بيان أن مجرد التوكل فى هذا المقام لا يكفى ، وإنما يكفى التوكل الحق (على نحو ما يأتى فى البيان) .

وفى جملة (لرزقكم كما يرزق الطير) تشبيه رزق الله المتوكلين عليه حق توكله برزقه الطير حين تسعى وتدأب وتنشط .

وبين (تغدو خماصا وتروح بطانا) مقابلة ، تكشف مدى الفرق بين الفراغ والامتلاء ، وتبين أن السعى كان سبيلا للامتلاء ولسد الفراغ .

الفكرة : إن الخير كل الخير فى الاعتماد على الله ، والتوكل عليه ، ورصد فضله ، والثقة والرجاء فيه ، مع التزام السعى ، وممارسة الاكتساب .

البيان :

١ — إن فضل الله على عباده أوسع من أن يحاط به علما ، فهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو — كما قال على لسان إبراهيم الخليل — عليه السلام : « الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » (الشعراء ٧٨ - ٨٢) . فنعم الله - تعالى - أكثر من أن تحصى ، فمنذ بدء الخليقة ، وظهور الحياة الدنيا يتقلب الناس ما بين : الشبع والجوع ، والرى والظمأ ، والصحة والمرض ، والغنى والفقر ، والأمان والخوف ، والقناعة والطمع ، والرجاء واليأس ، والسرور والحزن ، والاستقامة والعوج ، والاستواء والالتواء ، والإقبال والإدبار ،

والكر والفر ، واليقين والإنكار ، والإيمان والجحود ، والخير والشر ، والسعادة والشقاء .

وقد تجرف الدنيا الإنسان ، فيركن إلى الأسباب ، وينسى (وما سمى الإنسان إلا لنسيه) أن الله الذى خلقه هو خالق هذه الأسباب ، فلو راجع الإنسان ضميره لعرف أن كلا من عند الله ، وإلا فما يملك هذا الإنسان خلقا ولا رزقا ، ولا حياة ولا موتا ؛ « نحن خلقناكم فلولا تصدقون * أفرأيتم ما تمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون * نحن قدرنا بينكم الموت ، وما نحن بمسبوقين * على أن نبدل أمثالكم ، وننشئكم فيما لا تعلمون * ولقد علمتم النشأة الأولى ؛ فلولا تذكرون * أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون * لو نشاء لجعلناه حطاما ، فظلتم تفكهون * إنا لمغرمون * بل نحن محرومون * أفرأيتم الماء الذى تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجا ، فلولا تشكرون * أفرأيتم النار التى تورون * أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون * نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين * فسبح باسم ربك العظيم » (الواقعة ٥٧ – ٧٤) . وتكفل الله بأرزاق العباد فضلا منه ونعمة ؛ قال تعالى : « ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها . كل فى كتاب مبين » (هود ٦) .

٢ – وهذا كله يفرض على العباد الخضوع لله – جل شأنه – والانقياد إليه ، والثقة فيه ، والاطمئنان إليه ، والرجاء فيما عنده ، والتوكل عليه . ولكن الله – سبحانه وتعالى – لم يرض لخلقه القعود والتراخى والكسل والاستنامة ، اطمئنانا إلى ما قدره من أرزاقهم ، وإلى هذا الفضل الذى امتن به عليهم ، وإنما رضى لهم : أن يمشوا فى مناكب الارض ويأكلوا من رزقه ؛ « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه » (الملك ١٥) ، ورضى لهم أن ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ويستخرجوا من ذلك دلائل قدرته ، وأن يقيسوا

بمقدار ما تسعه عقولهم — مدى عظمته ؛ «أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء» (الأعراف ١٨٥) ، ورضى لهم أن ينظروا إلى مصدر طعامهم ومورده ، لعلهم يستبصرون ويدركون نعمة الله عليهم ؛ «فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صبا * ثم شققنا الأرض شقا * فأنبتنا فيها حبا * وعنبا وقضبا * وزيتونا ونخلا * وحدائق غلبا * وفاكهة وأبا * متاعا لكم ولأنعامكم» (عبس ٢٤ — ٣٢) .

وهذا أو ذاك يستوجب الحركة لا القعود ، وتحريك الرغائب المحمودة لا إخمادها ، وخوض غمار الحياة مع التوكل لا الوقوف على أعرافها ، فالوقوف على أعراف الحياة تواكل . وفرق بين التوكل والتواكل عظيم .

٣ — فالتواكل كسل وقعود وسلبية وتراخ ، ينشأ عن اعتقاد غير قويم أن الرزق آت لا ريب فيه . أما التوكل فشيء آخر . قال «القاضى عياض[1]» : يحد عامة الفقهاء التوكل بأنه «الثقة بالله — تعالى — والإيقان بأن قضاءه نافذ ، واتباع سنة نبيه — صلى الله عليه وسلم — فى السعى فيما لا بد منه من المطعم والمشرب ، والتحرز من العدو ، كما فعله الأنبياء — صلوات الله — تعالى — عليهم أجمعين» . وعن «أبى القاسم القشيرى» : «أن التوكل محله القلب ، وأما الحركة بالظاهر فلا تنافى التوكل بالقلب ، بعدما تحقق العبد أن الثقة من قبل الله — تعالى — ؛ فإن تعسر شيء فبتقديره ، وإن تيسر فبتدبيره» . ولا يقدح السعى فى التوكل ، كما لا يقدح فيه التطبب للصحة ، والأكل للغذاء ، والشرب للرى ، والاكتساب للقوت والإنفاق على العيال ، شريطة أن يفوض المرء سعيه واكتسابه وما إليهما الله — سبحانه وتعالى — وأن تكون ثقته فى ربه لا فى السعى والاكتساب ، ولا فى الأسباب المصاحبة لسعاه واكتسابه .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ٣/٩١ — طبعة حجازى .

روى عن أبى هريرة أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فوضه أن يعلن فى الناس أن من شهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه دخل الجنة ، فراجع عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ النبى فى هذا ، قائلا : لا تفعل ـ يارسول الله ـ فإنى أخشى أن يتكل الناس عليها ، فخلهم يعملون ، فأجاز الرسول اعتراضه(١) . وفى ظنى أن اعتراض عمر وإجازة الرسول لمنطقه نشأ كلاهما عن الخوف من أن يعتقد ناس أن الشهادة بالله كافية وحدها للفوز بالجنة ، إذ يذكرون شطر الكلام : (من شهد أن لا إله الله) وينسون شطره (مستيقنا بها قلبه) ؛ والاستيقان ـ فى تقديرى ـ لا يكفى فيه أن يقف عند حد استقرار العقيدة فى قلب المرء دون نزوع وعمل وحركة ، يغذيها هذا الإيمان القار ، واليقين المستقر .

٤ — ليس التوكل ـ إذن ـ بالأمر اليسير السهل الهين ، فإنما هو(٢) مقام من مقامات الموقنين ، ودرجة من معالى درجات المقربين ، ولا يقوى عليه إلا من أبصر فضل الله وتحقق منه . والتوكل مشتق من الوكالة ، وهى فى دنيا الناس أن يجعل المرء عنه وكيلا فى الخصومات وما إليها ؛ فالوكيل يكون محل ثقة الموكل ، وهذا مطمئن إليه بتوكيله ، ولا يتم ذلك إلا إذا اعتقد فى وكيله أربعة أمور : معرفة الوكيل بحقه ، وقدرته على الدفاع عنه دون استحياء أو جبن ، وفصاحة منطقه حين الدفاع ، وحرصه على استخلاص هذا الحق ؛ فإذا عرفت التوكل فى هذا المثال فقس عليه التوكل على الله ؛ فإن ثبت فى نفسك ـ بكشف أو باعتقاد جازم ـ أنه لافاعل إلا الله كما سبق ، واعتقدت مع ذلك تمام العلم والمقدرة [لله] على كفاية العباد ، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد ، وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ، ولا وراء منتهى علمه علم ، ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة . . اتكل ـ لا محالة ـ قلبك عليه وحده ، ولم يلتفت إلى غيره بوجه ولا إلى نفسه وحوله وقوته ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

(١) نص الحديث فى المصدر السابق ١/٢٣٤ .
(٢) إحياء علوم الدين ١٣/٢٤٨٢ وما بعدها .

وقد بحث الصوفيون فى التوكل ، وجعلوه درجات ثلاثا :

أولاها : هذه الدرجة التى ذكرنا لها مثالا من الوكيل فى الخصومات .

الثانية : أن يكون حال العبد مع الله كحال الطفل مع أمه ، لايعرف غيرها ، ولا يفزع إلى أحد سواها ، ولايعتمد إلا عليها ، « فمن كان باله إلى الله - عز وجل - ونظره إليه واعتماده عليه كلف به ، كما يكلف الصبى بأمه ، فيكون متوكلا حقاً » .

الثالثة : أن يكون العبد فى حركاته وسكناته بين يدى الله - تعالى - مثل الميت بين يدى غاسله ، لايفارقه إلا فى أنه يرى نفسه ميتا تحركه القدرة الأزلية ، وأنه خاضع لحركة الله القادر المريد . وهذه الحالة يكون صاحبها كالمبهوت ، فلا يشتغل بالتدبير إلا للحضور .

٥ — والدليل على أن الكسب لاينافى حال التوكل أن أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - لما بويع بالخلافة أصبح وقد أخذ الأثواب تحت إبطه يعرضها للبيع فى السوق ، وكره المسلمون منه هذا ، وقالوا : كيف تفعله وقد أقمناك لخلافة النبوة ؟ . فأجابهم بقوله : لاتشغلونى عن عيالى ؛ فإنى إن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع . ولم يزالوا به يراجعونه ، حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين . ويستحيل أن يقال : إن الصديق - رضى الله عنه - لم يكن فى مقام التوكل لافى الأولى ولا فى الآخرة ؛ فهو فى الأولى لم يقطع السعى والكسب ، وفى الآخرة إنما قطع الالتفات إلى قوته وكفايته فحسب ، إذ رضى أن يأخذ من بيت المال بقدر حاجاته ، من غير استكثار وتفاخر وادخار(١) .

٦ — ونأتى إلى نص الحديث ؛ فإنه يعطينا المثل من الطير ، تلتمس رزقها بكرة وغدوة ، وتظل النهار دائبة فى التقاط الحب ، وسد الجوع ؛

---

(١) إحياء علوم الدين ١٣/٢٠٢٥ .

حتى تشبع ، وتعود فى الرواح ملاء بطونها ، فتبيت هانئة ناعمة ، وكلما أصبح صباح جديد طارت إلى رزقها من جديد .

فالسعى لا يقطع التوكل ، بل يدانيه ويوازيه ، ونأخذ هذا من سعى الطير وحركتها فى الصباح مع الجوع أو الخفة ، وحركتها فى المساء مع الشبع والطمأنينة ، فهى تغدو ساعية وفيها من الطاقة ما يعينها على هذا السعى ، ولا تنتظر حتى تستهلك كل ما التهمته بالأمس وتستصفيه ، فتعجز عن الحركة ، ثم تموت ؛ ولا تعود من غير أن تكون قد اكتفت وشبعت . وإذا كانت الطير قد رزقت ذلك إلهاما فإن الإنسان أولى أن يلهم مثل ذلك عن مقدرة عقلية ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ؛ كما قال عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — ذات يوم لجماعة من الكسالى القاعدين ، وهو يؤدبهم بدرته . وهل جرب الإنسان يوما أن يشبع من غير طعام يطعمه ، وإذا وجد الطعام فهل يكفيه أن ينظر طعامه دون أن يمد إليه يدا ، وهل يكفى أن يمد اليد دون أن يردها إلى فمه ، وهل يكفى إيداع الطعام الفم دون مضغه أو بلعه ؟!

٧ — فعلى الإنسان أن يدأب فى السعى ، وليتخذ من هدى النبوة نبراسا ؛ دخل رجل على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو فى المسجد تاركا ناقته على بابه ، وسأل الرسول : أيترك دابته أم يعقلها ؟ . أجابه الرسول : « اعقلها ، وتوكل » ؛ فالتوكل يقتضى العمل والحذر والحيطة والجهد .

و « الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالأرض ، والإيمان كالبذر فيه ، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها ، والقلب المستهتر بالدنيا [أى المولع بها] المستغرق بها كالأرض السبخة التى ينمو فيها البذر . ويوم القيامة [هو] يوم الحصاد ،

ولا يحصد أحد إلا مازرع . ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان ، وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه ، كما لا ينمو بذر فى أرض سبخة فينبغى أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع ؛ فكل من طلب أرضا طيبة ، وألقى فيها بذرا جيدا ، غير عفن ، ولا مسوس ، ثم أمده بما يحتاج إليه ، وهو سوق الماء إليه فى أوقاته ، ثم نقى الشوك عن الأرض و[نقى] الحشيش ، وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ، ثم جلس منتظرا من فضل الله – تعالى – دفع الصواعق والآفات المفسدة ، إلى أن يتم الزرع ، ويبلغ غايته ؛ سمى انتظاره رجاء . وإن بث البذر فى أرض صلبة سبخة ، مرتفعة ، لا ينصب إليها الماء ، ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ، ثم انتظر الحصاد منه ؛ سمى انتظاره حمقا وغرورا لا رجاء . وإن بث البذر فى أرض طيبة ، لكن لا ماء لها ، وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضا ؛ سمى انتظاره تمنيا لا رجاء . فإذن : اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ، ولم يبق إلا ماليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله – تعالى – بصرف القواطع والمفسدات(١) » .

---

(١) إحياء علوم الدين ١٢/٢٣٠٩ .

الحديث الرابع

عن أبي ذر الغفاري — رضي الله عنه — عن النبي — صلى الله عليه وسلم — فيما يرويه عن ربه — عز وجل — أنه قال: « ياعبادي؛ إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا. ياعبادي؛ كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم. ياعبادي؛ كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم. ياعبادي؛ كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم. ياعبادي؛ إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم. ياعبادي؛ إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. ياعبادي؛ لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا. ياعبادي؛ لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا. ياعبادي؛ لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل واحد مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر. ياعبادي؛ إنما هي أعمالكم، أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها؛ فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ».

رواه مسلم

الحديث الخامس

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ؛ فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ؛ فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم ، فطرحت عليه ، ثم طرح في النار » .

رواه مسلم

اللغة : المفلس : اسم فاعل من أفلس : ومعنى أفلس : لم يبق له مال ، كأنما صارت دراهمه فلوسا ، أو صارت بحيث يقال : ليس معه فلس ، والفلس والفلوس أحط العملات قيمة . والمفلس أيضا : من فلسه القاضي أي أعلن إفلاسه . متاع : كل ما يستمتع به من الحوائج والسلع وسائر المنافع . قذف : سب ، وأصل القذف الرمي بالحجارة ، وكل ما رميته بيدك فأنت قذفته ، وقذف المحصنة أي رميها بالزنا . سفك الدم : أراقه ، والمراد الاعتداء على الأنفس بالقتل دون وجه حق . خطايا : جمع خطيئة وهي الذنب .

النحو : تدري . فعل قلبي معلق عن العمل فيما بعده ، لأن بعده استفهاما له الصدارة وجملة (من المفلس ؟) جملة استفهامية مكونة من مبتدأ وخبر موقعها النصب محلا بتدري . جملة (وقد شتم هذا) في موقع الحال من فاعل (يأتي) .

البلاغة : المفلس مفلسان : مفلس دنيوى وهو ماجاء فى جواب الصحابة ، ومفلس دينى وهو ماجاء فى تعقيب الرسول - عليه الصلاة والسلام — وقد جاء هذا التعقيب منه - على طريقة أسلوب الحكيم - لينبه إلى أنه أولى بالمسلمين أن يدركوا خطر الإفلاس الدينى وضرره . وفى (أكل مال هذا) استعارة مكنية فى المال تشبيها له بالشىء المطعوم ، قال تعالى : « ولا تأكلوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن » .

الفكرة : على المسلم أن يستزيد من فعل الخير وممارسة الطاعة والبعد عن الشر واجتناب الآثام ، حتى ترجح كفة حسناته ، ولا يأتى يوم القيامة وقد أفلس وضيع ماقدم من خير وطاعة وعبادة ؛ بسبب مالرتكب فى دنياه من الشرور والآثام والخطايا والذنوب .

البيـان :

١ — سأل الرسول - عليه الصلاة والسلام - أصحابه عن المفلس ، فأجابوه بحسب ما يعرفون من أحوال دنياهم ومعاشهم بأن المفلس من لا درهم له ولا متاع ، ومن تكن هذه صفته يضيع دنياه ، ويذل معاشه ، ويقض على جاهه ، ويدن من الفقر إن لم يكن واقعا فيه . وأراد الرسول أن يدلهم على مفلس آخر مهين ، يناظر هذا المفلس الذى يعرفون ، مفلس من نوع آخر لم يألفوه ، مفلس دينى لا يظهر إفلاسه إلا يوم الدين ؛ يوم يحاسب على ماقدم فى دنياه .

يأتى هذا المفلس الدينى ، وكان قد قدم فى دنياه من صالح الأعمال صلاة وصياماً وزكاة ، وظن أنه بصلاته هدى إلى البر ، الذى يهدى إلى الجنة ، وأنه بصيامه أخلص لله وجهه وأنه ملاق جزاءه عنده ، وأنه بزكاته ضمن طيب الثواب كفاء ما قدم من طيب المال . ثم يفاجأ يوم القيامة بأنه - فى دنياه - كان أبطل ثوابه ، وضيع جهده ، وأفسد صالح أعماله ؛ بما ارتكب

عن الخطايا والذنوب والآثام ؛ فقد سار فى دنياه سيرة أهل السوء والشر ؛ يشتم الناس ، ويسبهم ، ويرميهم بالباطل ، ويقذف أعراضهم ، ويعدى عليهم ، وينتهب أموالهم ، ويعتدى على حقوقهم ، ويسفك دماءهم .

وقد ورد وصف هؤلاء المفلسين فى الأثر أكثر من مرة ، ومن ذلك قول الرسول - عليه السلام - : « ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار . قالوا : يارسول الله ؛ مصلين ؟ . قال : نعم . كانوا يصلون ويصومون ويأخذون هنة من الليل ، فإذا عرض لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه »(١) .

٢ — لابد من القصاص يوم القيامة ، والجزاء من جنس العمل ، ويجيء الواحد منهم وقد خلط عملا صالحا وآخر سيئا ، فأما العمل الصالح فله ثوابه وحسناته يجزاها الجزاء الأوفى ، وأما العمل السيء فعليه وزره ، فليقضه دينا من حسناته ، يدفع منها إلى من أساء إليهم ، حيث يزاد فى حسناتهم وينقص من حسناته ، فإذا نفدت حسناته وما يزال يركبه الدين أخذ من سيئات من أساء إليهم وطرحت على سيئاته هو ؛ حتى يستوفوا حقهم منه ، ويطرح هو فى جهنم ؛ بما حمل من سيئاته وسيئات القوم .

ومن الممكن أن نتصور الصورة فى الدنيا - قبل أن تكون فى الآخرة - بصورة المال المثمر الكاسب ، يضيعه الحمق أو المغامرة أو الربا ، فيأكل الكسب والزيادة ، ثم يأتى على الأصل ، ويستهلكه ، أو يركبه الدين ، فيستأديه الأصل والربح ، حتى يفلس المدين ولا يبقى له شيء .

٣ — أرأيت إفلاسا أبشع من هذا الإفلاس ! ، وحمقا أبشع من حمق المفلس على هذه الصورة ! ؛ أثيب بفعله ، وعوقب بفعله ؛ « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء

(١) إحياء علوم الدين ١٧٠٨/٩ .

الأوفى» (النجم ٣٩ — ٤١). ولاتعارض بين هذا وماقررته الآية الكريمة السابقة: «ولا تزر وازرة وزر أخرى» (النجم ٣٨)؛ لأن ذاك المفلس إنما يؤاخذ بجريرة نفسه، ولا يؤاخذ بجريرة غيره، فهو الذى ارتكب الآثام والمنكرات، وهو الذى ولغ فى أغراض الناس، وهو الذى طمع فيما فى أيدى الناس فاستولى عليها بغير حق، وهو الذى سفك الدماء، وعلى الجملة لم يهتد بهدى الله، فخالف أمره - تعالى - فيما يجب من السلوك الحسن، والمعاشرة بالمعروف، وخاض غمار المعاصى، فكان ممن وسمهم الله «بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا» (الكهف ١٠٣ — ١٠٤) فإذا جاء يوم القيامة، ورأى سعيه بين يديه؛ فلا يلومن إلا نفسه، وإذا اقتص الله منه فبحقه وبحق الضحايا الذين أساء إليهم، وإذا طرح فى النار فبما أجترح وظلم نفسه؛ «وما ألتناهم من عملهم من شىء، كل امرئ بما كسب رهين» (الطور ٢١)، «ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه» (النساء ١١١)، «ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون؛ إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مهطعين مقنعى رءوسهم، لا يرتد إليهم طرفهم، وأفئدتهم هواء» (إبراهيم ٤٢ - ٤٣).

٤ — ويوم القيامة لا يغنى أحد عن أحد شيئا. وهذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خشى أن يظن أقاربه أنه يغنى عنهم شيئا؛ لمكانته عند ربه، فقطع عليهم هذا التفكير، وحذرهم، وكاشفهم، وقال قولته المشهورة: «يامعشر قريش؛ اشتروا أنفسكم؛ لا أغنى عنكم من الله شيئا. يابنى عبد مناف؛ لا أغنى عنكم من الله شيئا. ياعباس بن عبد المطلب؛ لا أغنى عنك من الله شيئا. وياصفية عمة رسول الله، لا أغنى عنك من الله شيئا. ويا فاطمة بنت محمد، سلينى ماشئت من مالى، لا أغنى عنك من الله شيئا».

الحديث السادس

عن عبد الله بن عمر — رضي الله عنهما — قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم ، حتى أووا إلى غار ، فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل ، فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم ، فقال رجل منهم : اللهم ، كان لى أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا[1] ، فنأى بى فى طلب شىء يوما[2] ، فلم أرح عليهما[3] ، حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما ، فوجدتهما نائمين ، وكرهت أن أغبق قبلهما أهلا ومالا فلبثت والقدح على يدى ، أنتظر استيقاظهما ، حتى برق الفجر ، فاستيقظا ، فشربا غبوقهما . اللهم إن كنت فعلت ذلك ، ابتغاء وجهك ، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئا ، لا يستطيعون الخروج ، قال النبى — صلى الله عليه وسلم — : وقال الآخر : اللهم كانت لى بنت عم ، كانت أحب الناس إلىّ ، فأردتها عن نفسها ، فامتنعت منى ، حتى ألمت بها سنة من السنين ، فجاءتنى ، فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها ، ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها قالت : لا أحل لك أن

---

(١) أغبق (من بابى ضرب ونصر) متعدية . يقال : غبقته أغبقه أى سقيته عشاء ، فاغتبق هو أى شرب ، والمشروب غبوق .

(٢) نأى : بعد . وفى رواية الأصيلى (فناء) . والمعنى واحد . والفاعل هنا محذوف أى بعد بى الوقت ، وفى رواية مسلم : « وإنه نأى بى طلب الشجر يوما » .

(٣) لم أرح عليهما : الفعل رباعى من أراح بمعنى عاد وقت الرواح ، ويقال : أراح فلان على فلان حقه أى رده عليه .

تفض الخاتم إلا بحقه ، فتحرجت من الوقوع عليها ، فانصرفت عنها ، وهى أحب الناس إلىّ ، وتركت الذهب الذى أعطيتها . اللهم ، إن كنت فعلت ، ابتغاء وجهك ، فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها . قال النبى — صلى الله عليه وسلم — : وقال الثالث : اللهم ، إنى استأجرت أجراء ، فأعطيتهم أجرهم ، غير رجل واحد ، ترك الذى له وذهب ، فثمرت أجره ، حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين ، فقال : ياعبد الله ، أد إلى أجرى ، فقلت له : كل ماترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق ، فقال : ياعبد الله ، لا تستهزئ بى ، فقلت : إنى لا أستهزئ بك ، فأخذه كله ، فاستاقه ، فلم يترك منه شيئا . اللهم ، فإن كنت فعلت ذلك ، ابتغاء وجهك ، فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، فخرجوا يمشون » .

أخرجه الشيخان

الحديث السابع

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : سمعت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « لو كان لابن آدم واديان من مال لا بتغى ثالثا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب . ويتوب الله على من تاب » .

(رواه البخارى)

اللغة : واديان : مثنى (واد) اسم منقوص ، والوادى : هو كل منفرج بين الجبال أو الآكام ، يكون منفذا للسيل . ابتغى : طلب .

النحو : ثالثا : نعت لمحذوف يقع مفعولا به ، وأصل الكلام : لابتغى واديا ثالثا . لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب : الاستثناء فى هذه الجملة مفرغ ، وجوف : مفعول به ، والتراب : فاعل الفعل .

البلاغة : فى جملة « لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب » قصر طريقه النفى والاستثناء ، وهو قصر إضافى ، وقصر صفة على موصوف ، والغرض من هذه العبارة تقرير معنى ماسبقه . وملء التراب الجوف كناية عن الموت ، لأنه يستلزم الامتلاء من التراب ، كأنه قال : لا يشبع ابن آدم من الدنيا حتى يموت ، فيملأ جوفه من تراب قبره . وقد وردت هذه العبارة بعدة روايات (فى صحيح البخارى) : هذه الرواية ، ورواية « ولا يسد جوف ابن آدم إلا التراب » ورواية « ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب » ، ورواية « ولن يملأ فاه ابن آدم إلا التراب » وإيقاع الفعل على الجوف أتى على الحقيقة ، وخصه بالذكر لأنه موطن اللذة من المطاعم والمشارب ، وعلى العين لأنها أداة الإعجاب الذى يتبعه الطلب ، وعلى الفم لأنه مبتدأ مايتعاطاه الجوف .

وجملة « ويتوب الله عن من تاب » : موصولة بما قبلها ، فالجملتان

خبريتان ، فالوصل بينهما للتوسط بين الكمالين ، ويجوز أن تكون الجملة الثانية (جملة : ويتوب . . .) واقعة موقع الاستدراك ؛ للتنبيه على فضيلة القناعة والتوبة عن الطمع .

الفكرة : إن حب المال مركوز فى نفوس الناس ، وإن طالب المال منهوم لا يشبع منه ، وإن هذا النهم مذموم ، ومن عصمه الله وفقه إلى التوبة ، وهداه إلى القناعة والرضا بما يأتيه .

البيان :

١ — حب المال مركوز فى الطباع ، والدين الإسلامى يعترف بهذا ، ومن أجله نظم العلاقات الاقتصادية ، ووضع التشريعات المالية ، التى تنتظم معاملات الناس ؛ من بيع ، وشراء ، وإجارة ، ومزارعة ، وسلم ، ودين ، وشركة ، وهبة ، وشفعه ، ورهن ، ووصية . . . الخ ، وأوصى بحسن المعاملة ، وبإيفاء الكيل والميزان ، وبرعاية أموال اليتامى والسفهاء ، وبالكسب الحلال ، « وأحل الله البيع ، وحرم الربا » (البقرة ٢٧٥) ، كما حرم الميسر ، والغصب ، والسرق ، والاحتكار ، والغش ، وجعل فى أموال القادرين زكاة وصدقات ، تطهرهم ، وتزكيهم ، وتستدعى احترام الفقراء والمعدمين لهم ، وزوال أحقادهم ، ونوازع الشر من نفوسهم ، فلا ينقضون على المجتمع .

ومن المركوز فى هذه الطباع أيضا : المباهاة بالمال ، ووضعه موضع الفخار ، قال الله — تعالى — : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » (الكهف ١٦) ؛ فبالمال تزدان الحياة الدنيا ، كما تزدان بالأولاد والبنين ، وإذا كان الإنسان له من ولده أسناد وأعضاد فى هـــذه الدنيا ، فإن له من ماله أيضا عونا وجاها وبسطة ، حتى إنه ليطغيه ؛ « إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى » (العلق ٦ — ٧) . وحكى الله — سبحانه وتعالى — عن

صاحب البستان قوله لصاحبه وهو يحاوره : « أنا أكثر منك مالا ، وأعز نفرا * ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال : ما أظن أن تبيد هذه أبدا * وما أظن الساعة قائمة » (الكهف ٣٤ — ٣٦) ، فقد أطغاه ماله ، وجره إلى نسيان ربه وآخرته ، ولذلك عاقبه الله ، وأتاه من الجهة التي يحبها وتطغيه ، « وأحيط بثمره ، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ، وهى خاوية على عروشها » (الكهف ٤٢) .

٢ — لكن . هل المال هو كل شيء فى هذه الحياة ؟ . إنه قد يكون غاية فى ذاته ، أو أداة للملذات الجثمانية العاجلة ، وهى ملذات[1] يشترك فيها الإنسان مع سائر الحيوان . وقد يكون المال وسيلة إلى المعيشة الراضية بما تقتضيه الحكمة ، فيطلب الإنسان المال راشداً ، وينمى ثروته عاقلا ، ويؤدى حق الله فى ماله وثروته راضيا سمحا . ولسان حاله قول الشاعر[2] :

أريد بسطة كف أستعين بها على قضاء حقوق للعلا قبلى

٣ — والعاقل هو صاحب الحال الأخيرة ، فلا غرو يجعل الله غناه فى قلبه ، ويسدد خطاه ، ويهدى طريقه ، ويؤيد سعيه ، ويقوى عزمه ، وتأتيه الدنيا راغمة ؛ لأنه لا يرصدها إلا ليجعلها مطية للآخرة ، فهو يدفعها عنه ، وينفق منها سراً وجهراً . أما من كانت الدنيا همه فإنه يعيش لها ، ويحرص على متاعها ، وينافس فيها ، ويخدع بزخرفها ، فيضل سعيه ، ولا يناله منها إلا النصب والتعب ، والهلع والجزع ، والحسرة والندم ؛ لأنه غفل عن ذكر أنعم الله عليه ، ولم يتوق البلاء ، ولم يوق شح نفسه.

---

(١) الشيخ يوسف الدجوى : سبيل السعادة — ص ٨٦ وما بعدها — مطبعة النهضة الأدبية ١٣٣٢هـ / ١٩١٤ م .

(٢) هو الطغرائى ، وقد عمل فى خدمة السلاجقة ، ووزر للسلطان مسعود السلجوقى بالموصل ، فلما انتقلت السلطنة إلى أخيه محمود اعتقل الطغرائى زمنا ، ثم قتله بدعوى الالحاد سنة ٥١٤ هـ .

قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهى راغمة . ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ماقدر له».

والمسلم العاقل يمكن أن يبتغى دنياه وآخرته معا ، فلا ينصرف لإحداهما عن الأخرى ، ولا يضيع إحداهما بتكالبه على الأخرى ، وإنما يصيب من دنياه حظه مراقبا فى الآخرة قسطه ، فيستقيم له أمرهما على سواء . قال تعالى : «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض» (القصص ٧٧).

والمسلم العاقل يعالج دنياه ، قادرا عليها وعلى اتخاذها مطية للآخرة ، غير مخدوع فيما أوتى من مال وغنى وثراء وجاه ؛ فما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، ورزق ربك خير وأبقى . قال — تعالى — : «اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ، ولهو ، وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما. وفى الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» (الحديد ٢٠). وقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : — «إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون»، وقال : «من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ؛ فآثروا ما يبقى على ما يفنى» ، وقال : «من أصبح والدنيا أكبر همه ؛ فليس من الله فى شىء ، وألزم الله قلبه أربع خصال : هما لا ينقطع عنه أبدا ، وشغلا لا يتفرغ منه أبدا ، وفقرا لا يبلغ غناه أبدا ، وأملا لا يبلغ منتهاه أبدا»، وقال : «هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيرا ؟ . ألا إنه من رغب فى الدنيا وطال أمله فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك ، ومن زهد فى الدنيا وقصر فيها أمله أعطاه الله علما بغير تعلم ، وهدى بغير هداية» .

٤ - روى(١) أن عيسى - عليه السلام - مر بقرية ، فإذا أهلها موتى فى الأفنية والطرق ، فقال لحوارييه : إن هؤلاء ماتوا عن سخطة ، ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا . فطلب الحواريون إليه أن يعلمهم خبرهم ، فسأل الله فى ذلك ، فأوحى الله إليه : إذا كان الليل فنادهم يجيبوك فلما كان الليل أشرف على مرتفع ، وناداهم ، فأجابه منهم رجل . قال عيسى : ما حالكم وما قصتكم ؟ . قال الرجل : بتنا فى عافية ، وأصبحنا فى هاوية . فسأله عيسى : وكيف ذاك ؟ . قال الرجل : أحببنا الدنيا وأطعنا فيها أهل المعاصى . قال عيسى : وكيف كان حبكم للدنيا ؟ . قال الرجل : أحببناها حب الصبي لأمه ؛ إذا أقبلت فرحنا بها ، وإذا أدبرت بكينا حزنا عليها . قال عيسى : فما بال أصحابك لم يجيبونى ؟ . قال الرجل : لأنهم ملجمون بلجم من نار ، بأيدى ملائكة غلاظ شداد . قال عيسى : فكيف أجبتنى أنت من بينهم ؟ . قال الرجل : لأنى كنت فيهم ولم أكن منهم ، فلما نزل بهم العذاب أصابنى معهم ، فأنا معلق على شفير جهنم ، لا أدرى أأنجو منها أم أكبكب فيها ! . وإثر هذا قال المسيح لحوارييه : لأكل خبز الشعير بالملح الجريش ولبس المسوح والنوم على المزابل كثير مع عافية الدنيا والآخرة .

وهذه التى يدعو إليها عيسى - عليه السلام - مرتبة فى زهد الدنيا لا يقدر عليها إلا أقل القليل ، ولعله من أجل ذلك أقر حديث رسولنا على العموم مبدأ حب المال والرغبة فى الازدياد منه ؛ فلو كان لابن آدم واد واحد من مال - كما جاء فى بعض الروايات - لابتغى واديا ثانيا ، ولو كان له واديان لابتغى ثالثا ، وعلى التنظير : لو كان له ثلاثة أودية لابتغى رابعا . . . وهكذا ؛ حتى يموت ، ويمتلىء من تراب قبره ، الذى خلق من مثله ؛ فإن حرص الإنسان على ماله ودنياه طبيعة فيه وغريزة ،

(١) إحياء علوم الدين ١٧١٠/٩

ومع ذلك تضعه طبيعته وغريزته موضع المذنب الآثم ؛ لأنه لا ينتظر من مثله إلا الحرص على الدنيا والتكالب عليها ، ومن ثم يشح ويبخل ويضل ضلالا مبينا ، و « حب الدنيا رأس كل خطيئة » .

٥ — ومن أراد أن يستقيم أمره تاب إلى الله ، فتاب الله عليه ، والتوبة فى الدنيا بديل من نار جهنم فى الآخرة(١) .

وحد التوبة : ترك الذنب الذى كان ملابسا ، والتندم عليه ، والعزم على تركه وأمثاله إلى آخر العمر ، وتدارك ما فات من التقصير بالخير إن كان قابلا للخير .

والتوبة مقبولة بشرائطها هذه ، وقد قال الله - تعالى - : « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات » (الشورى ٢٥) ، و « إن الله - كما روى عن الرسول - يبسط يده بالليل ، ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ؛ ليتوب مسىء الليل » ، وبسط اليد هكذا كناية عن طلب التوبة . أرأيت الله يطلب إلى عبده أن يتوب إليه ، « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه » (المائدة ٣٩) . وقال تعالى : « وإنى لغفار لمن تاب ، وآمن ، وعمل صالحا ، ثم اهتدى » (طه ٨٢) وفى حديث الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « لله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل فى أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته ، فطلبها ، حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش - أو ما شاء الله - قال : أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ

(١) إحياء علوم الدين ١١/٢٠٧١ ومابعدها .

فإذا راحلته عنده ، عليها زاده وشرابه . فالله ـ تعالى ـ أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته » .

وعلى العبد التائب(١) أن يتضرع إلى الله ـ تعالى ـ فى سؤال المغفرة والعفو ، ويتذلل لله تذلل العبد الآبق ، ويكون تذلله هذا بحيث يظهر لسائر العباد ، وذلك بنقصان كبره فيما بينهم . وعليه أن يضمر بقلبه الخير للمسلمين ، والعزم على الطاعات . وعليه أن يردد اعترافه بالذنب ، وأن يكثر من ضروب الاستغفار ، وأن يكفر عن سيئاته بالطاعة والصدقة والصلاة وسائر ألوان العبادة ، فإن الحسنات يذهبن السيئات .

٦ — وليعلم المسلم أن التوبة واجبة على الفور ، قال ـ تعالى ـ « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ، ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليما حكيما * وليست التوبة للذين يعملون السيئات ، حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إنى تبت الآن . ولا الذين يموتون وهم كفار . أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما » (النساء ١٧ - ١٨) . فتأخير التوبة غفلة ، وقد يحول الموت بينه وبين الوفاء بها « فيقول : رب ؛ لولا أخرتنى إلى أجل قريب ؛ فأصدق ، وأكن من الصالحين * ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها » (المنافقون ١٠ - ١١) ، وهذا الأجل القريب الذى يطلبه ، قيل معناه(٢) : أنه يقول عند ما يكشف له غطاؤه : يا ملك الموت ؛ أخرنى يوما ، أعتذر فيه إلى ربى ، وأتوب ، وأتزود صالحا لنفسى . فيقول له ملك الموت : فنيت الأيام ، ولم يبق منها يوم . يقول : فأخرنى ساعة . فيجيبه الملك : فنيت الساعات ، ولم يبق منها ساعة . فيغلق عليه باب التوبة ، فيتغرغر بروحه ، وتتردد أنفاسه فى شراسفه ، ويتجرع

---

(١) إحياء علوم الدين ١٢/٢١٤٤ وما بعدها .

(٢) إحياء علوم الدين ١١/٢٠٨٧ .

غصة اليأس عن التدارك ، وحسرة الندامة على تضييع العمر ، فيضطرب أصل إيمانه فى صدمات تلك الأحوال ، فإذا زهقت روحه فإن كانت سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد ؛ وذا حسن الخاتمة . وإن سبق له القضاء بالشقوة — والعياذ بالله — خرجت روحه على الشك والاضطراب ، وذا سوء الخاتمة .

ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين : أحدهما أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى ، حتى يصير رينا وطبعا ، فلا يقبل المحو . والآخر أن يعاجله المرض أو الموت ، فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو .

جعلنا الله ممن أتى الله بقلب سليم ، وممن يرزقهم المبادرة إلى التوبة فى كل حين .

الحديث الثامن

عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – جلس ذات يوم على المنبر فقال : « إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ، فقال رجل : يارسول الله ، أو يأتي الخير بالشر ؟ – فسكت النبي ، فقيل له : ماشأنك تكلم النبي ولا يكلمك ! ، فرأينا أنه ينزل عليه ، قال : فمسح عنه الرحضاء[1] ، فقال : أين السائل ؟ ، وكأنه حمده – فقال : إنه لايأتي الخير بالشر ، وإن مما ينبت الربيع يقتل ، أو يلم[2] ، إلا آكلة الخضراء ، أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت عين الشمس ، فثلطت[3] ، وبالت ، ورتعت[4] ، وإن هذا المال خضرة حلوة ، فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل » .

رواه البخاري

(١) الرحضاء : العرق الكثير كأنه يغسل الجلد ، وغالبا مايكون إثر الحمى .

(٢) يلم : مضارع ألم بمعنى يكاد ويقرب ، فما ينبت الربيع منه مايقتل ومنه مايقارب أن يقتل .

(٣) ثلطت : سلحت سلحا رقيقاً .

(٤) رتعت : رعت ، والماشية راتعة راعية .

الحديث التاسع

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم – قال: «ليس الغنى من كثرة العرض. إنما الغنى غنى النفس».

رواه الشيخان

اللغة: الغنى: حيازة المال الكثير، وصاحبه الغنى والغانى. العرض (بفتحتين) المتاع، والسعة، وكل شيء سوى النقدين، والنقدان عين، وقال أبو عبيد: العروض الأمتعة التي لا يدخلها كيل ولا وزن ولا تكون حيوانا ولا عقارا، وعرض الدنيا ما كان من مال قل أو كثر.

النفس: تطلق عدة معان، منها: الشخص، والروح، والدم، والجسد، والعين، وعين الشيء، والغيب، والعقوبة، والذات، والإرادة، والعظمة ومن استعمالها بمعنى الروح قوله تعالى: «خلقكم من نفس واحدة»، وقولنا: (خرجت نفس فلان)، وبمعنى الدم (كل شيء ليست له نفس سائلة لا ينجس الماء) ومن هذا النفاس والنفساء، وبمعنى العين قولهم (أصابته نفس) أي عين، والعامة تكسر النون. وبمعنى عين الشيء قولك (جاءني بنفسه)، وبمعنى الغيب قوله – تعالى –: «تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك»، قال ابن الأنباري: معناه تعلم غيبي ولا أعلم غيبك ويشهد له قوله – تعالى – في آخر الآية: «إنك أنت علام الغيوب»، وبمعنى العقوبة قوله تعالى: «ويحذركم الله نفسه»، وبمعنى الذات قوله – تعالى – في حديث قدسي: «إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي».

النحو : إنما : إن المؤكدة ، كفتها (ما) عن العمل ، فما بعدها مبتدأ وخبر .

البلاغة : فى جملة « إنما الغنى غنى النفس » قصر ، طريقه (إنما) ، وهو قصر إضافى ، وقصر موصوف على صفة . وفى رواية « ولكن الغنى غنى النفس » فهو استدراك أراد به الرسول ـ عليه السلام ـ أن ينبه إلى ما ينبغى أن يستغنى به المسلم .

الفكرة : الغنى الذى يستحق اسم الغنى إنما هو غنى النفس ، وغناها فى تحليها بالفضائل بعامة وبالقناعة والرضا بأنعم الله بخاصة . وليس الغنى فى هذه الثروات الدنيوية ، وفى اختزان الأموال ، واكتنازها .

البيان :

١ — لا جدال فى أن للحياة حاجاتها ، ولا مراء فى أن المسلم مكلف بالإنفاق على نفسه وإعالة أسرته ، وهذا واحد من التكاليف العينية المفروضة عليه من عدة وجوه ، فهو[1] مأمور بحفظ دينه اعتقادا وعملا ، وبحفظ نفسه للقيام بضروريات حياته ، وبحفظ عقله صيانة لمورد الخطاب إليه من ربه ، وبحفظ نسله التفاتا إلى بقاء النوع فى عمارة هذه الدنيا ، وبحفظ ماله للاستعانة به على إقامة تلك الأوجه الأربعة .

ومن هنا جاءت دعوة الإسلام إلى الانتشار فى الأرض ، والابتغاء من فضل الله ، بعد أداء طاعته « يأيها الذين آمنوا ، إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ، وذروا البيع ؛ ذلكم خير لكم إن كنتم

---

(١) الشاطبى : الموافقات ٢/١٧٦ وما بعدها .

تعلمون * فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله » (الجمعة ٩ — ١٠) ، وجعل الله النهار معاشاً لنا ، وجعل لنا فى الأرض معايش ومكننا فيها ، وسخر لنا بفضله البحر ؛ لنتخذه مطية الفلك ، ونحن نبتغى فيه الرزق . قال — تعالى — « وجعلنا النهار معاشا » (النبأ ١١) ، وقال : « وجعلنا آية النهار مبصرة ؛ لتبتغوا فضلا من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحساب » (الإسراء ١٢) وقال : «ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش » (الأعراف ١٠) ، وقال : الله الذى سخر لكم البحر ؛ لتجرى الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله » (الجاثية ١٢) ، وقال : « ومن آياته : أن يرسل الرياح مبشرات ، وليذيقكم من رحمته ، ولتجرى الفلك بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون » (الروم ٤٦) .

٢ — ومع هذه الدعوة إلى ابتغاء الدنيا ، وبذل النشاط الاقتصادى ، والسعى فى سبيل الكسب ، قامت دعوة تزجر المسلم عن الشره والطمع ، وتردعه عن الانكباب فى طلب الدنيا ، وتصرفه عن الغلو فى الحرص عليها . قال — تعالى — : « قل : متاع الدنيا قليل ، ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلا » (النساء ٧٧) « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » ، (آل عمران ١٨٥) . « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو » (الأنعام ٣٢) . « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا ، وخير أملا » (الكهف ٤٦) . ويقول الرسول — عليه الصلاة والسلام — من حديث طويل : « ... فوالله ما الفقر أخشى عليكم . ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا ، كما بسطت على من كان قبلكم ، فتتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم » .

٣ – وفيما بين الدعوتين يقف التوسط والاعتدال والتعفف والقناعة والرضا بما قسم الله – محور النشاط الاقتصادى للمسلم .

فالمسلم لم تحرم عليه الدنيا وزينتها ، ولا الطيبات من الرزق ، وإنما يطلب إليه أن يجعل إقباله على دنياه إقبالا مشروعا ، بحيث يتاح له أن ينفق منها بما يدنيه من ثواب الله . « قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ ! . قل : هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » (الأعراف ٣٢) .

فإذا أباح الإسلام للمسلم اقتناء الدنيا ؛ رعاية للطبيعة البشرية التى ركبها الله فيه ؛ فبشرط أن يكون اقتناؤها مصدراً للانتفاع بها ، وألا تبلغ بالمسلم درجة للفتنة بها فتنة تصرفه عن الجادة . يريد الإسلام أن يطلب متاع الدنيا ؛ للوقاية من حاجات الحياة ومطالبها ، وصيانة من الحرمان ، وأداة للاستقرار المعيشى . ولا يريد الإسلام أن يطلب متاع الدنيا ؛ للطغيان ، والاسترسال فى التطاول ، والاستغراق فى الشهوات .

فسعى الإنسان يجب ألا يفسد عليه دينه ، وإنما يجب أن يكون سعياً يجنى من ورائه راحة نفسه وهدوءها ، من غير إفراط فى السعى ولا تفريط فيه ، فإن الإفراط جشع ، ومن وراء الجشع الشقاء بالفتنة بالدنيا ، والهم بما يطوله منها ، والتفريط فى السعى تقصير ، ومن وراء التقصير الشقاء بالحرمان ، والهم بما يفرط فى جنب نفسه . وخير الأمور أوساطها . يقول الرسول – عليه الصلاة والسلام – : « كل ، واشرب ، والبس ، وتصدق ؛ فى غير سرف ، ولا مخيلة » ، فيرشدنا إلى إباحة التمتع بما فى الدنيا من مآكل ومشارب وملابس ، ويرشدنا إلى الصدقة والعطف على عباد الله مما نلنا ، بعيداً كل أولئك عن السرف والزهو والاختيال والتباهى والمراءاة ، قريبا كل أولئك من الاستقامة والقناعة والاعتدال . وليوقن المسلم أن ما قدر له موافيه ، وعن الرسول – عليه السلام – أنه قال : « أيها الناس ،

أجملوا فى الطلب ، فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له ، ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهى راغمة » .

٤ — حكى « الشعبى[1] » أن رجلا صاد قنبرة ، فقالت : ما تريد أن تصنع بى ؟ . قال : أذبحك ، وآكلك . قالت : والله ما أشفى من قرم ، ولا أشبع من جوع ، ولكن أعلمك ثلاث خصال ، هى خير لك من أكلى. قال : هات ما عندك : قالت : لا . أعلمك الأولى وأنا فى يدك ، والثانية إذا صرت على الشجرة ، والثالثة إذا صرت على الجبل قال : هات الأولى . قالت : لا تلهفن على ما فاتك ، فخلاها ، فلما صارت على الشجرة قال : هات الثانية : قالت : لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون ، ثم طارت ، فصارت على الجبل ، فقالت : ياشقى ، لوذبحتنى لأخرجت من حوصلتى درتين ، زنة كل درة عشرون مثقالا ، فعض الرجل على شفته وتلهف ، ثم قال : هات الخصلة الثالثة : قالت : يارجل ، أنت قد نسيت اثنتين فكيف أخبرك بالثالثة ؟ ! ألم أقل لك : لا تلهفن على ما فاتك ولا تصدقن بما لا يكون؟ ! أنا لحمى ودمى وريشى لايزن عشرين مثقالا فكيف يكون فى حوصلتى درتان كل واحدة عشرون مثقالا . ثم طارت فذهبت .

وهذا مثال لفرط الطمع ، إذا ركب الإنسان أعماه عن درك الحق . وعلينا كلما أصابنا داء التعلق بالدنيا ومظاهرها ، ونغص علينا حياتنا ، وأحسسنا الشقاء والحرمان — أن نلتمس العلاج الذى وصفه الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى قوله : « إذا نظر أحدكم إلى من فضل الله عليه ، فى المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم » ، فالنظر الأول يجعل الإنسان عبد دنياه ، وعبيد الدنيا أذلاء تعساء أشقياء بعبوديتهم ، دعا عليهم الرسول فى قوله « تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة ، إن أعطى رضى ، وإن لم يعط سخط . تعس ،

(١) إحياء علوم الدين ١٠/١٧٦٩ .

وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش[1] ، فهم لا يرفعون إلى الحياة الكريمة رءوسهم .

أما النظر الأخير — نظر الإنسان إلى من هو أقل منه فى الرزق أو الولد أو جمال الجسم أو سلامته — فإنه كفيل بالارتداد به إلى القناعة، وشكر الله على ما أنعم به وتفضل ، وبألا يزدرى نعمة الله .

٥ — والإنسان الذى يطلب المال واقع فى حال من خمس حالات[2]:

(أ) الاضطرار : إذا كان يطلب المال ، ليسد حاجة الضرورة ، كالجائع الفاقد الخبز ، والعارى الفاقد الثوب .

(ب) الحرص : إذا كان يرغب فى المال ، ويشغل بطلبه . وإن بدا أحيانا أنه يتركه فذا ناشئ عن عجزه .

(ح) القناعة : إذا كان وجود المال أحب إليه من عدمه ، ولكن لم يبلغ من رغبته فيه أن ينهض لطلبه ، بل إن أتاه عفوا أخذه، وإن افتقر إلى التعب فى طلبه لم يشتغل به .

(ى) الرضا : إذا كان لا يرغب فى المال رغبة من يفرح لحصوله ، ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ، ولو أتاه المال زهد فيه .

(هـ) الزهد : إذا أتاه المال كرهه وتأذى به وهرب من أخذه وأبغضه، وإنه ليحترز من شره والاشتغال به .

ولا ندعو الناس جميعا إلى الزهد ، وإن كنا ندعوهم إلى القناعة أو الرضا بحسب قوة إيمانهم ويقينهم ، وأن يعالجوا الحرص والطمع

---

(١) الخميصة : كساء أسود مربع له أعلام وخطوط ، انتكس : عاوده المرض كما بدأ به وانقلب على رأسه ، فهو دعاء عليه بالخيبة والخسران ؛ لأن من انتكس فقد خاب وخسر. شيك : أصابته شوكة لا انتقش : لاخرجت الشوكة من جسده بالمنقاش . يقال : نقشت الشوك أى استخرجته .

(٢) إحياء علوم الدين ١٣/٢٣٩٢ وما بعدها .

بالاقتصاد فى المعيشة والرفق فى الإنفاق والتدبير ، وبالتحقق من أن أرزاقهم آتية لا ريب فيها ، فلا يكونوا شديدى الاضطراب لأجل المستقبل ، وعليهم أن يدركوا ما فى الحرص من الذل ، ويدركوا ما فى القناعة من عز الاستغناء ، بالرغم من تحمل آلام الصبر عن الشهوات والفضول ، وأن يكثروا التأمل فيما أصاب الأسلاف من الطغاة المتجبرين ، وما عاش فيه أولياء الله من سلامة وعافية ، وأن يفهموا ما فى جمع المال من الخطر ، وما فى خلو اليد من الأمن والفراغ[1] . قال — عليه الصلاة والسلام — : « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له ، وعليها يعادى من لا علم له ، وعليها يحسد من لا فقه له ، ولها يسعى من لا يقين له » .

٦ — « إنما الغنى غنى النفس » .

والنفس — أيا كان معناها اللغوى أو الفلسفى — هى بالنسبة إلى الإنسان ذاته ، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها ، فهى[2] : النفس المطمئنة ، إذا سكنت وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات ، فتخلقت بالأخلاق الحميدة ، وتنورت بنور اليقين ، قال الله تعالى فى مثلها : « يأيتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى * وادخلى جنتى » (الفجر ٢٧ - ٣٠) . وهى النفس اللوامة ، إذا لم يتم سكونها ، فصارت تدافع الشهوات ، وتعترض عليها ، وتلوم صاحبها عند تقصيره فى العبادة ، وكلما صدرت عنها سيئة بحكم طبيعتها المظلمة تداركها نور التنبيه الإلهى ، فأخذت تحاسب صاحبها ، قال - تعالى - : « ولا أقسم بالنفس اللوامة » (القيامة ٢) .

(١) إحياء علوم الدين ١٠/١٧٧٠ وما بعدها .

(٢) إحياء علوم الدين ٨/١٣٤٥ ومفتاح الفلاح ومصباح الأرواح لابن عطاء الله السكندرى — ص٢ وما بعدها — طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .

وهى النفس الأمارة ، إذا أذعنت لمقتضى الشهوات ، وأطاعت الشيطان ، وتركت الاعتراض ، قال ـ تعالى ـ فى قصة يوسف وامرأة العزيز : « وما أبرئ نفسى ، إن النفس لأمارة بالسوء » (يوسف ٥٣) .

والنفس المطمئنة هى النفس الغنية ، وغناها فى رضاها وفى قناعتها ، وهذا هو الغناء الأخروى . أما الثراء بالمال والمتاع والعروض والرياش والدور والعقار والخدم والحشم وغيرها فهو غنى الدنيا ، وهو حطام إلى زوال ، وعرض لا يثق فيه من ألهمه الله الخير .

ويقول « ابن عطاء الله السكندرى[1] » : « كفى بك جهلا أن تحسد أهل الدنيا على ما أعطوا ، وتشغل قلبك بما عندهم ؛ فتكون أجهل منهم ؛ لأنهم اشتغلوا بما أعطوا ، واشتغلت أنت بما لم تعط » .

(١) تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس ـ ص ١١ ـ طبعة القاهرة سنة ١٣٤٥ هـ .

الحديث العاشر

عن أبي هريرة — رضي الله عنه — أنه سمع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول: « إن ثلاثة من بني إسرائيل — أبرص وأعمى وأقرع — بدا لله — عز وجل — أن يبتليهم، فبعث ملكا، فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحب إليك؟. قال: لون حسن، وجلد حسن، قد قذرني الناس. قال: فمسحه فذهب عنه، فأعطى لونا حسنا، وجلداً حسنا، فقال: أي المال أحب إليك؟. قال الإبل، فأعطى ناقة عشراء، فقال: يبارك لك فيها. وأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟. فقال: شعر حسن، ويذهب عني هذا، قد قذرني الناس. قال: فمسحه، فذهب، وأعطى شعراً حسنا. قال: فأي المال أحب إليك؟. قال. البقر. قال: فأعطاه بقرة حاملا، وقال: يبارك لك فيها. وأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك؟. قال: يرد الله إلي بصري، فأبصر به الناس. قال: فمسحه، فرد الله إليه بصره. قال: فأي المال أحب إليك؟. قال: الغنم. قال: فأعطاه شاة والدا. فأنتج هذان، وولد هذا، فكان لهذا واد من إبل، ولهذا واد من بقر، ولهذا واد من الغنم.

ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين، تقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله، ثم بك. أسألك — بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال — بعيرا، أتبلغ به في سفري. فقال: إن الحقوق كثيرة. فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص، يقذرك الناس، فقيرا، فأعطاك الله!. فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر. فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع فى صورته وهيئته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، فرد عليه مثل ما رد هذا ، فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأعمى فى صورته ، فقال : رجل مسكين ، وابن سبيل ، وتقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ، ثم بك . أسألك — بالذى رد عليك بصرك — شاة ، أتبلغ بها فى سفرى : فقال : قد كنت أعمى ، فرد الله بصرى ، وفقيرا ، فقد أغنانى ، فخذ ما شئت ، فو الله لا أجهدك اليوم بشىء أخذته لله : فقال أمسك مالك ، فإنما ابتليتم ، فقد رضى الله عنك ، وسخط عن صاحبيك »

رواه الشيخان

الحديث الحادى عشر

عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنهم ذبحوا شاة ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما بقى منها » ؟ . قالت : « مابقى منها إلا كتفها » . فقال : « بقى كلها غير كتفها » .

رواه الترمذى

اللغة : شاة : الشاة الواحدة من الغنم ، تقع على الذكر والأنثى ، فيقال للذكر : هذا شاة ، وللأنثى هذه شاة ، وقيل : لا تختص بالغنم ، فتقع على الضأن والمعز والظباء والبقر والنعام وحمر الوحش .

النحو : (ما) فى سؤال النبى ـ عليه السلام ـ استفهامية مبتدأ ، وفى جواب عائشة ـ رضى الله عنها ـ حرف نفى . كتفها : الأولى واقعة بعد (إلا) فى استثناء مفرغ ، فهى فاعل ، والثانية واقعة بعد (غير) فى استثناء موجب تام ، وهى مجرورة بالإضافة ، أما (غير) فمنصوبة عند الجمهور على الاستثناء .

البلاغة : فى جواب عائشة ـ رضى الله عنها ـ قصر طريقه النفى والاستثناء ، وهو قصر إضافى ، وقصر صفة على موصوف .

وفى تعقيب الرسول ـ عليه السلام ـ أسلوب الحكيم ، للتنبيه على مزية الإنفاق والصدقة .

الفكرة : بيان فضل الصدقة ، وأنها تربو عند الله ، والحث على إخراجها ؛ تطهيرا للنفوس ، ونماء المال ، واجتلابا لمحبة الفقراء والكادحين ، وإشاعة للتراحم بين أفراد المجتمع .

البيان :

١ — شرع الإسلام الزكاة والصدقات ؛ لتحقيق التكافل الاجتماعى ، وإقامة المجتمع على أساس من التعاون والتراحم والمحبة ، وإقرار الأخوة البشرية ، وفرض الله الزكاة ، وقدرها تقديرا ، ورغب فى الصدقات ، وحث عليها ، مثيبا على هذه وتلك ، واعدا الباذلين الأسخياء بإخلاف مابذلوا ؛ « وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين » (سبأ ٣٩) . والمال مال الله ، وإنه ليبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، فإذا أنفقنا فإنما ننفق من مال الله الذى آتانا ، وجعلنا مستخلفين فيه ، وأمناء على إنفاقه وعلى التصرف فيه ؛ قال - تعالى - : « آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ؛ فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » (الحديد ٧) .

وتشريع الزكاة والصدقات فى الإسلام وسيلة عملية لمكافحة الفقر ؛ وتخفيف ويلاته ، والقضاء عليه . ويمثل هذا التشريع السماوى مرحلة اجتماعية فى تاريخ البشرية ، وقد أصبح أنموذجا ، يحاكيه التشريع الوضعى الغربى ، ففى إنجلترا صدر فى سنة ١٦٠١م قانون عرف باسم (قانون الفقراء) يعترف بحق الفقراء فى أموال الأغنياء ، ويلتزم برعاية كل عاجز وأعمى وأعرج وهرم وسجين سجنا مؤبدا وطفل يعجز أبواه عن القيام بشئونه ورجل ليس له مورد رزق ، واقتبست الولايات المتحدة الأمريكية هذا القانون . كذلك كان التشريع الإسلامى متكأ لقيام الدول بفرض الضرائب ، للإنفاق منها فى بعض مصارف الزكاة والصدقات .

٢ — وإلى جانب دعوة الإسلام إلى البذل بالمال قامت دعوة أخرى إلى أن يصون المسلم ماء وجهه عن السؤال ، وأن يكسب من عمل يده ، وألا يهدر كرامته بمد اليد . قال رسولنا الأكرم - صلى الله عليه وسلم - : « اليد العليا خير من اليد السفلى ، واليد العليا هى يد الباذل المنفق المتصدق ،

واليد السفلى هي يد السائل الآخذ . وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « إن أطيب ما أكلتم من كسبكم » ، وقال : « لأن يأخذ أحدكم حبله ، ثم يأتي بحزمة من حطب على ظهره ، فيبيعها ـ خير له من أن يسأل الناس ؛ أعطوه ، أو منعوه » ، وقال : « لا تزال المسألة بأحدكم ، حتى يلقى الله وليس بوجهه مزعة لحم » ، فهو يخجل أن يلقى ربه بهذا الوجه الممزوع . وقال ـ عليه الصلاة السلام ـ : « من يتكفل لي ألا يسأل الناس شيئا ، وأتكفل له بالجنة » .

٣ — ولكن البذل يجب أن يستمر ، والصدقة يجب أن تسخو بها اليد ، حتى تستقيم للناس أمور معاشهم ، وينمحي الفقر من بينهم . وتزول أسبابه ، ويصير المجتمع فعلا مجتمع الكفاية والعدل ، وتتحقق نبوءة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في قوله : « ليأتين على الناس زمان ، يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب ، فلا يجد أحداً يأخذها منه » ، وقوله : « تصدقوا . فيوشك الرجل أن يمشي بصدقته ، فيقول الذي يعطاها : لو جئتنا بالأمس قبلتها ، وأما الآن فلا حاجة لي فيها ، فلا يجد من يقبلها منه » .

وباب البذل متسع ، فالمسلم الذي ينفق على أهله يحتسب نفقته ويريد بها وجه الله ينال ثواب الصدقة ، يقول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما رواه عنه أبو مسعود الأنصاري : « إذا أنفق المسلم نفقة على أهله وهو يحتسبها كانت له صدقة » . وللمسلم صدقة في الإحسان إلى الخدم ، والتخفيف عنهم ، وتكليفهم بما يطيقون ، وعدم إرهاقهم بالعمل ، فإذا كلفهم ما يغلبهم أعانهم ، وفي كل ذلك ثواب جزيل وأجر سخي يلقاه المسلم في موازينه يوم القيامة ، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ « ما خففت عن خادمك من عمله فهو أجر لك في موازينك يوم القيامة » .

والبذل يكون بالمال ، ويكون بإعانة من يحتاج إلى المعونة ، وكذلك يكون بالكلمة الطيبة ، « والكلمة الطيبة صدقة » ، ويكون بالبشاشة ، « لا تحقرن

من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » .

والبذل ميسور لكل الناس من ذوى اليسار والفاقة على السواء ، وعلى الناس جميعا أن يبذلوا ؛ كل على قدر طاقته . يقول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « على كل مسلم صدقة . فقالوا : يانبى الله ، فمن لم يجد ؟ . قال : يعمل بيده ، فينفع نفسه ، ويتصدق . قالوا : فإن لم يجد ؟ . قال : يعين ذا الحاجة الملهوف . قالوا : فإن لم يجد ؟ . قال : فليعمل بالمعروف ، وليمسك عن الشر ، فإنها له صدقة » .

فليفرح الكادحون ، فقد فتح الرسول لهم باب الخير ، بما يبذلون لصاحب الحاجة الملهوف من عون ، إغاثة له ، أو انتصافا له من ظالمه ، وبما يتداعون إلى المعروف ، ويعملون به ، ويتناهون عن المنكر ، ويمسكون عن الشر .

٤ ـ والحديث الذى ترويه السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ صريح فى أن ثواب الصدقة على قدرها ، فهذه الشاة التى ذبحوها وتصدقوا بأجزائها إلا جزءا واحدا هو كتفها التى احتجزوها لما كلهم ، يثابون على أجزائها جميعا إلا جزءا واحدا هو الذى أبقوه لدنياهم ، فقد حققت لهم الفائدة فى الدنيا بهذه الكتف التى أبقوها ، وحققت لهم العائدة من الثواب فى الآخرة بما تصدقوا به .

والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ عندما سأل عما بقى من الشاة أجابته السيدة بما تعلم من أمور المعاش ، ولكن الرسول اتخذ من الجواب معبرا إلى الإفضاء بما يعلم ، مما أعده الله للباذلين المتصدقين ، من أجر كريم . قال ـ تعالى ـ : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ، فيضاعفه له ، وله أجر كريم » (الحديد ١١) ، وقال : « إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ، ولهم أجر كريم » (الحديد ١٨) .

وقال ـ جل شأنه ـ : « ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ؛ ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » (التوبة ١٢١)؛ فهم لا ينقصون شيئا ، وإنما يجدون مايقدمونه عند الله قرضا مضاعفا ثوابه ، مجزيا بأحسن ما كانوا يعملون . وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « مانقص مال عبد من صدقة » ، فإنما يزاد هذا المال بفضل الله ، وبالبركة التي يضعها فيه ، وبما وعد ـ سبحانه ـ في قوله : « ويربي الصدقات » (البقرة ٢٧٦) .

وعلى المسلم أن يبذل لله في دنياه من ماله مايستطيع ، ويتقرب به إليه قبل أن يموت ، حتى يلقاه في الآخرة أمامه ، مشرقة به صحيفة أعماله . قال رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ . قالوا . يا رسول الله ، مامنا أحد إلا ماله أحب إليه . قال : فإن ماله ماقدم ، ومال وارثه ما أخر » ؛ أي أن ماله الذي يستحق أن يضاف إليه هو ماقدمه في دنياه بأن أنفقه في وجوه الطاعات والخيرات ، ومال وارثه هو ما أخره إلى مابعد موته ، فلم ينفقه من قبل ؛ شحا به ، وبخلا ، وإمساكا عن وجوه البر .

٥ — وللبذل أسباب ودواع[1] .

(ا) أن يرى الباذل خلة يقدر على سدها ، أو فاقة يتمكن من إزالتها ، فلا يدعه الكرم والتدين إلا أن يكون زعيم صلاحها وكفيل نجاحها .

(ب) أن يرى في ماله فضلا عن حاجته ، وفي يده زيادة عن كفايته ، فيرى انتهاز الفرصة ، فيضعها حيث تكون له ذخرا .

(ح) أن يدفع مافي يده عندما يشار لديه بالكرم ، فيتنبه له بالفطنة، حكوا أن « عبيد الله بن سليمان » لما تقلد وزارة « المعتضد » كتب إليه « ابن عبد الله بن طاهر » :

(١) أدب الدنيا والدين لأبي الحسن البصري الماوردي ـ فصل البر — ص٧٢ ومابعدها ـ طبعة مصطفى البابي الحلبي وأخويه ـ سنة ١٣١٨هـ ؛

أبى دهرنا إسعافنا فى نفوسنا وأسعفنا فيما نحب ونكرم
فقلت له : نعماك فيهم أتمها ودع أمرنا . إن المهم مقدم

فقال « عبيد الله » : ما أحسن ماشكا أمره بين أضعاف مدحه ! . وقضى حاجته .

(د) أن يبذل رعاية ليد سلفت ، أو جزاء على صنيعة ، فى بذله أداء حق ، أو لفكاك من أسر الإحسان . قال « أبو العتاهية » :

وليست أيادى الناس عندى غنيمة ورب يد عندى أشد من الأسر

(هـ) أن يبذل رغبة فى الوصول إلى منصب .

(و) أن يدفع بالمال سطوة أعدائه ، ويستكف به نفار خصمائه ، ليصيروا له بعد العداوة والخصومة إخوانا ؛ صيانة لعرض ، أو حراسة لمجد .

(ز) أن يربى بسالف صنيعة أولاها ، ويراعى به قديم نعمة أسداها ، لكيلا ينسى ما أولاه ، ويضيع ما أسداه . فإن مقطوع البر ضائع ، ومهمل الإحسان ضال .

(ح) أن يبذل محبة ، يؤثر بها المحبوب على ماله ، فلا يضن عليه بمرغوب ، ولا ينفس عليه بمطلوب ؛ للذة التى هى عنده أحظى ، وإلى نفسه أشهى .

(ط) أن يبذل لغير ماسبب ، وإنما هى سجية فطر عليها ، وشيمة طبع بها ، فلا يميز بين مستحق ومحروم ، ولا يفرق بين محمود ومذموم .

ليس يعطيك للرجاء ولا للخوف . ولكن يلذ طعم العطاء

الحديث الثانى عشر

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأتى به ، فعرفه نعمه ، فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ . قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكن قاتلت ، لأن يقال : جرىء . فقد قيل . ثم أمر به ، فسحب على وجهه ؛ حتى يلقى فى النار . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتى به ، فعرفه نعمه ، فعرفها ، فقال ما عملت فيها ؟ . قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ؛ ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ؛ ليقال : هو قارئ . فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار . ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به ، فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ . قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ، ولكنك فعلت ؛ ليقال : هو جواد . فقد قيل . ثم أمر به ، فسحب على وجهه ، فألقى فى النار » .

رواه مسلم وأحمد

الحديث الثالث عشر

عن النعمان بن بشير — رضى الله عنه — قال : سمعت النبى — صلى الله عليه وسلم — يقول : « إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة — لرجل توضع فى أخمص قدميه جمرتان ، يغلى منهما دماغه » .

رواه مسلم

اللغة : أهون اسم تفضيل من (هان) بمعنى سهل وخف ، فهو أهونهم عذابا أى أسهلهم عذابا وأخفهم عذابا . أخمص قدميه : الأخمص (بفتح الهمزة وبفتح الميم أو ضمها) : الجزء من القدم الذى يتجافى عن الأرض عند المشى . جمرتان : مثنى جمرة ، والجمرة هنا النار المتقدة . يغلى : مضارع غلى (وزان جلس يجلس) ، غليانا ، وأصل الغليان شدة اضطراب الماء ونحوه فى القدر من النار .

النحو : عذابا : تمييز ملحوظ منصوب . لرجل : اللام لام الابتداء ورجل خبر إن مرفوع . جمرتان : نائب فاعل ، وجملة (يغلى منهما دماغه) نعت له .

البلاغة : تأكيد الخبر بإن واللام لتنزيل المخاطبين منزلة المنكرين . وتقديم الوصف بهوان العذاب للتشويق إلى الخبر فالنفوس تتطلع إلى معرفة أخف الناس عذابا حتى يقيسوا أمورهم . وتأخير المسند إليه فى جملة (توضع فى أخمص قدميه جمرتان) لمثل هذا التشويق ، والاتيان بجملة الوصف إردافا .

الفكرة : إن عذاب جهنم درجات ، وكلها مؤلم موجع ، وهذا هو أدنى الدرجات إيلاما ، توضع جمرتان على أخمصى القدمين ، فيغلى الجسم والدماغ منهما ، فعلى الناس أن يتقوا نارا هم وقودها .

البيــان :

١ - فى هذا الحديث يخبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة ، ويعطينا صورة هذا العذاب المهين فى صورة شخص توضع فى أخمص قدميه جمرتان من نار ، فى كل قدم جمرة ، فإذا دماغه يغلى غليانا ، ويضطرب اضطرابا ، مما أصابه فى قدميه .

وقد ذكر شراح الحديث أنه قيل فى « أبى طالب » عم النبى - صلى الله عليه وسلم - ويسند هذا القول ماروى من أحاديث أخر ، فيها ذكر اسم أبى طالب ، مثل قوله - عليه الصلاة والسلام - فيما رواه عنه ابن عباس - رضى الله عنهما - : « أهون أهل النار عذابا أبو طالب ، وهو منتعل بنعلين يغلى منها دماغه » ، وقوله - عليه الصلاة والسلام - فيما رواه عبد الله بن الحارث - رضى الله عنه - قال : قال العباس - رضى الله عنه - : « يارسول الله ؛ هل نفعت أبا طالب بشىء ؛ فإنه كان يحوطك ، ويغضب لك ؟ . قال - عليه الصلاة السلام - : نعم هو فى ضحضاح من نار ؛ ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار » ؛ أى أن الرسول أريه فى غمار النار وفى قعر جهنم فشفع له راجيا التخفيف عنه ، بسبب صلته به ، وحياطته إياه ، ونصره له ، وتوفره على مصالحه ؛ فأجيب الرسول فى عمه وأخرج من غمار النار إلى ضحضاحها أى وجهها . ولعل الرسول أخبر بما سيكون من أمر عمه وأمر شفاعته هو له يوم القيامة ، بدليل الحديث الآخر ، المروى عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله ذكر عنده عمه أبو طالب . فقال : « لعله

تنفعه شفاعتي يوم القيامة ، فيجعل في ضحضاح من نار ، يبلغ كعبيه ، يغلي منه دماغه » .

٢ — وقد استحق أبو طالب العذاب بسبب موته على الكفر . ومن ألطف ما قيل في اختيار عقابه بجمرتين على أخمصي قدميه أنه كان متثبتاً بقدميه على ملة (عبد المطلب) ، ولم ينطق بكلمة الإسلام على الرغم من محاولة الرسول أن ينطق بها . فسلط الله على أبي طالب العذاب على قدميه خاصة . لتثبيته إياهما على دين آبائه ، من باب مشاكلة الجزاء للعمل.

وقد اعترض على التخفيف من عقاب أبي طالب بأن حسنات الكافرين لا تنفعهم يوم القيامة ، استدلالا بما روى عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت : قلت : يارسول الله . ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين . فهل ذلك نافعه ؟ . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: لا ينفعه ؛ إنه لم يقل يوما : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين ، فهذا « عبدالله ابن جدعان » من بني تميم بن مرة . كان من رؤساء قريش . وكان في الجاهلية يصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويطعم الفقير والمسكين . وقد جعل للناس جفنة ممتلئة بالطعام دائما ، يرقى النـــاس إليها بسلم ، فيطعمون ، لا يصدهم عنها صاد .

وأجيب عن هذا الاعتراض بأن تخفيف العذاب عن أبي طالب خصوصية أعطيها ؛ بسبب صلة الرسول - عليه الصلاة السلام _ به ، وبسبب دفاعه السابق عن الرسول وتحزبه له .

٣ — وأياً كان الأمر فلا نقف عند السبب طويلا ، ونرى أن نأخذ عموم لفظ الحديث ، والرسول — عليه الصلاة والسلام — يخبرنا فيه عن أهون الحالات وأخف صور العذاب شأنا ، وأقلها إيجاعا وإيلاما ،

عما يشعر ـ صراحة ـ بتفاوت عذاب أهل النار يوم القيامة ، فمنهم من يعذبون هذا العذاب الهين ، ومنهم من « تلفح وجوههم النار ، وهم فيها كالحون » (المؤمنون ١٠٤) ، ومنهم من يكبون على وجوههم مصفودين مسربلين بالقطران وتغشى وجوههم النار : « وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد * سرابيلهم من قطران ، وتغشى وجوههم النار » (إبراهيم ٤٩ ـ ٥٠) ، ومنهم الفاسقون حطب جهنم ووقودها : « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » (الجن ١٥) ، ومنهم الذين كانوا يأكلون فى الدنيا أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين كانوا يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فهؤلاء « يحمى عليها فى نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم » (التوبة ٣٥) ، ومنهم الذين كفروا بآيات الله وصدوا عنها ، فهم كما قال الله فيهم : « إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ؛ ليذوقوا العذاب » (النساء ٥٥) ، ومنهم من يقتات شجرة الزقوم مشوبة بالحميم ، ممزوجة بالماء الحار والغسلين ، فتغلى بطونهم بها ، ويصب على رءوسهم منها ، قال الله ـ تعالى ـ فى شأن هذه الشجرة : « إنا جعلناها فتنة للظالمين إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم * طلعها كأنه رءوس الشياطين * فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون * ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم * ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم » (الصافات ٦٣ ـ ٦٨) . « إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلى فى البطون * كغلى الحميم * خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق ، إنك أنت العزيز الكريم » (الدخان ٤٣ ـ ٤٩) . « ثم إنكم ـ أيها الضالون المكذبون ـ * لآكلون من شجر من زقوم * فمالئون منها البطون * فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شرب الهيم » (الواقعة ٥١ ـ ٥٥) . « ولا طعام إلا من غسلين * لا يأكله إلا الخاطئون » (الحاقة ٣٦ ـ ٣٧) .

وهل يطيق ابن آدم فى دنياه لفح النار ؟ ! فما باله بأهون العذاب شأنا

يوم القيامة وأدناه درجة ؟! . جمرتان إذا وضعتا على القدمين ، واستقرتا عليهما احترق الجسد ، وتمزق العصب ، واستحال الجسم كله إلى لهب . ومن المعلوم بالتجربة أن فى دفء القدمين دفء الجسم كله ، وفى بردهما برد الجسم كله .

٤ ـ ولا ريب فى أن عذاب جهنم عذاب مادى ؛ لأن ظاهر القرآن الكريم والحديث الشريف يدل على ماديته . وإلى جانب ما ذكرناه من نصوص نذكر قوله تعالى : « فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة » (البقرة ٢٤) . « الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، وأولئك هم وقود النار » (آل عمران ١٠) . « لهم من جهنم مهاد ، ومن فوقهم غواش ، وكذلك نجزى الظالمين » (الأعراف ٤١) . « وقالوا : لا تنفروا فى الحر . قل : نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون » (التوبة ٨١) . « واستفتحوا ، وخاب كل جبار عنيد * من ورائه جهنم ، ويسقى من ماء صديد * يتجرعه ، ولا يكاد يسيغه ، ويأتيه الموت من كل مكان ، وما هو بميت ، ومن ورائه عذاب غليظ » (إبراهيم ١٥ - ١٧) . « ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ، ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ، مأواهم جهنم ، كلما خبت زدناهم سعيرا » (الإسراء ٩٧) . « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » (الأنبياء ٩٨) . « إن الله لعن الكافرين ، وأعد لهم سعيرا * خالدين فيها أبدا ، لا يجدون وليا ولا نصيرا * يوم تقلب وجوههم فى النار » (الأحزاب ٦٤ - ٦٦) . « والذين كفروا لهم نار جهنم ، لا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها . كذلك نجزى كل كفور * وهم يصطرخون فيها : ربنا ؛ أخرجنا نعمل صالحا غير الذى

كنا نعمل . أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ، وجاءكم النذير ! .
فذوقوا ؛ فما للظالمين من نصير » (فاطر ٣٦ - ٣٧) .

فعذاب الآخرة عذاب مادى ، وليس هناك ما ينفيه أو يدفعه ، سوى أن حقائق هذا العذاب لا يمكننا أن ندركها بأعيانها ، وإن أمكن أن ندركها عن طريق التصور ، وعن طريق القياس على ماديات الدنيا ، وإن كان الفارق أعظم من أن يقاس .

الحديث الرابع عشر

عن سمرة بن جندب ــ رضى الله عنه ــ قال: كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مما يكثر أن يقول لأصحابه: هل رأى أحد منكم من رؤيا؟ . قال: فيقص عليه من شاء الله أن يقص . وإنه قال ذات غداة: « إنه أتانى الليلة آتيان، وإنهما ابتعثا بى، وإنهما قالا لى: انطلق، وإنى انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوى بالصخرة لرأسه، فيثلغ رأسه، فيتهدهد الحجر ههنا[1]، فيتبع الحجر، فيأخذه، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه، فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى . قال: قلت لهما: سبحان الله! . ماهذان؟ قال: قالا لى: انطلق انطلق. قال. فانطلقنا، فأتينا على رجل مستلق لقفاه، وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد[2]، وإذا هو يأتى أحد شقى وجهه، فيشرشر شدقه إلى قفاه[3]، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، ثم يتحول إلى الجانب الآخر، فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه، فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى. قال: قلت: سبحان الله! ما هذان؟ . قال: قالا لى: انطلق انطلق. فانطلقنا، فأتينا على مثل التنور[4] ــ قال:

(١) يثلغ رأسه: يشدخها . يتهدهد الحجر: يتحرك منحدرا .

(٢) الكلوب والكلاب ــ كلاهما بتشديد اللام: المهماز وهو من الحديد .

(٣) يشرشر شدقه: يمزقه ويقطعه، والشدق: جانب الفم من باطن الخدين .

(٤) التنور: الكانون يخبز فيه .

وأحسب أنه كان يقول : فإذا فيه لغط وأصوات — قال : فاطلعنا فيه ، فإذا فيه رجال ونساء عراة ، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم ، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا[1] . قال : قلت لهما : ما هؤلاء ؟ قال: قالا لى: انطلق انطلق. قال : فانطلقنا ، فأتينا على نهر — حسبت أنه كان يقول — أحمر مثل الدم ، وإذا فى النهر رجل سابح يسبح ، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة ، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ، ثم يأتى ذلك الذى قد جمع عنده الحجارة ، فيفغر له فاه ، فيلقمه حجرا[2] ، فينطلق يسبح ، ثم يرجع إليه ، كلما رجع إليه فغر له فاه ، فألقمه حجرا . قال : قلت لهما : ما هذان ؟ . قالا لى : انطلق انطلق. قال : فانطلقنا ، فأتينا على رجل كريه المرآة[3] ، كأكره ما أنت راء رجلا مرآة، وإذا عنده نار يحشها ويسعى حولها . قال : قلت لهما : ما هذا ؟ قال : قالا لى : انطلق انطلق . فانطلقنا ، فأتينا على روضة معتمة ، فيها من كل نور الربيع ، وإذا بين ظهرى الروضة رجل طويل ، لا أكاد أرى رأسه طولا فى السماء ، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط . قال : قلت لهما : ماهذا ؟ . ماهؤلاء ؟ . قال : قالا لى : انطلق انطلق . قال : فانطلقنا ، فانتهينا إلى روضة عظيمة ، لم أر روضة قط أعظم منها ولا أحسن . قال : قالا لى : ارق فيها . قال: فارتقينا فيها ، فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة[4] ، فأتينا باب المدينة ، فاستفتحنا ، ففتح لنا ، فدخلناها ، فتلقانا فيها رجال ، شطر من خلقهم

(١) ضوضوا : أحدثوا جلبة وأصواتا .
(٢) يفغر فاه : يفتحه . يلقمه حجرا : يدفع الحجر فى فمه كأنه لقمة .
(٣) المرآة (بالفتح) : المنظر — مفعلة من رأى .
(٤) اللبن (وزان كتف وإبل) : هذا المضروب من الطين للبناء ، وقد جمعه فى الحديث من ذهب وفضة .

كأحسن ما أنت راء ، وشطر كأقبح ما أنت راء . قال : قالا لهم : اذهبوا ، فقعوا في ذلك النهر . قال : وإذا نهر معترض ، يجرى كأن ماءه المحض في البياض[1] ، فذهبوا ، فوقعوا فيه ، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم ، فصاروا في أحسن صورة . قال : قالا لى : هذه جنة عدن ، وهذاك منزلك . قال : فسما بصرى صعدا ، فإذا قصر مثل الربابة البيضاء[2] . قال: قالا لى : هذاك منزلك . قال : قلت لهما : بارك الله فيكما . ذرانى فأدخله . قالا : أما الآن فلا ، وأنت داخله . قال: قلت لهما : فإنى قد رأيت منذ الليلة عجبا ، فما هذا الذى رأيت ؟ قال : قالا لى : أما . إنا سنخبرك : أما الرجل الأول الذى أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة . وأما الرجل الذى أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق . وأما الرجال والنساء العراة الذين في مثل بناء التنور فإنهم الزناة والزوانى . وأما الرجل الذى أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجارة فإنه آكل الربا . وأما الرجل الكريه المرآة الذى عنده النار يحشها ويسعى حولها فإنه مالك خازن جهنم . وأما الرجل الطويل الذى في الروضة فإنه إبراهيم . وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة — قال : فقال بعض المسلمين : يارسول الله ، وأولاد المشركين ؟ . فقال رسول الله : وأولاد المشركين — وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر قبيح فإنهم قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، تجاوز الله عنهم » .

رواه البخارى

---

(١) المحض : اللبن الخالص .

(٢) الربابة (بالفتح) السحابة البيضاء أو السحابة التى تراها متعلقة دون السحاب الأعظم بيضاء كانت أو سوداء .

الحديث الخامس عشر

عن عائشة أم المؤمنين — رضى الله عنها — أن قريشا أهمتهم المرأة المخزومية التى سرقت ، فقالوا : من يكلم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ، فكلم رسول الله ، فقال — عليه الصلاة والسلام — : « أتشفع فى حد من حدود الله ! » ثم قام ، فخطب ، قال : « يأيها الناس ، إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد . وايم الله ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

رواه البخارى

اللغة :

أهمتهم : أحزنتهم . والفعل أهم ، ومثله هم الثلاثى ، تقول : أهمه الأمر وهمه أى أحزنه وجلب عليه الهم .

يجترئ عليه : يتشجع عليه . يقال : جرأته عليه تجريئا فاجترأ ، والجرىء الشجاع .

حب رسول الله : حبيبه . والحب بالكسر المحبوب . ومحبة الرسول لأسامة من أمرين : أولهما أنه ربى فى بيته عليه السلام ، والأمر الآخر أنه ابن زيد بن حارثة الذى كان مملوكا للسيدة خديجة بنت خويلد — رضى الله عنها — فلما تزوجها الرسول وهبته له ، فأعتقه وتبناه قبل الإسلام وصار يدعى زيد بن محمد إلى أن أبطل الإسلام التبنى (راجع سورة الأحزاب — الآيتين ٤ و ٥) .

تشفع : تطلب أن تكون شفيعا ، والشفاعة الرجاء فى أمر من الأمور بوسيلة أو عهد أو صلة .

حد من حدود الله : حكم من أحكام الشريعة . والحد فى اللغة الحاجز بين شيئين ومنتهى الشىء والمنع ؛ والمناسبة بين المعنيين اللغوى والشرعى أن أحكام الشريعة تحجز الناس عن الشر وتجعلهم ينتهون عن الفساد وتمنعهم من التمادى فى الباطل .

ضل : لازما بمعنى ضاع وهلك ولم يهتد ، ومتعديا بمعنى أضل وأهلك . وفى رواية : « إنما أهلك الذين من قبلكم » .

الشريف : الماجد على العموم ، أو الماجد بآبائه وأجداده . والمراد ذو الوجاهة والخطر بين الناس .

الضعيف : غير القوى . والمراد الفقير الرقيق الحال .

وأيم الله : أسلوب قسم ، وأصل أيم : أيمن جمع يمين ، وقيل همزتها همزة وصل .

النحو : المرأة : فاعل أهم . أسامة : فاعل يكلم ويجترئ على سبيل التنازع ، فلك أن تجعله فاعل الفعل الأول ، ويكون فاعل الثانى ضميره ، ولك أن تجعله فاعل الفعل الثانى ويكون فاعل الأول ضميره . ضل : إن جعلته لازماً ففاعله اسم الموصول (من) بعده وتكون أن محذوفة الصلة أى لأنهم كانوا إذا سرق .. الخ ، أو بأنهم كانوا .. الخ أى بسبب أنهم كانوا . وإن جعلت الفعل (ضل) متعدياً ففاعله المصدر المؤول من أن واسمها وخبرها ومفعوله (من) الموصولة . أيم الله : مبتدأ خبره محذوف وجوبا والتقدير أيم الله قسمى ، ويجوز أن يعرب خبرا محذوفاً مبتدؤه والتقدير قسمى أيم الله ، وفى كل يمتنع ذكر المحذوف على الأشهر . لو أن فاطمة .. الخ : مر إعراب مثل هذا الأسلوب فى صفحة (١٣) .

البلاغة :

الاستفهام فى عبارة (من يكلم رسول الله . . إلا أسامة) للنفى ، بدليل الاستثناء . وفى الجملة قصر إضافى ، قصر صفة على موصوف .

والاستفهام فى (أتشفع فى حد من حدود الله) للانكار ، فالرسول ينكر على أسامة أن يشفع فى حدود الله وهى التى يجب أن تراعى وتقام ، ويحمل هذا الإنكار معنى التوبيخ .

إنما ضل من قبلكم . . الخ : فيها قصر طريقه إنما ، قصر إضافى ، قصر صفة على موصوف ، سواء اعتبرت الفاعل (من) الموصولة ، أم المصدر المؤول من أن ومعموليها .

وفى جملتى (إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد) تقابل ؛ للاشارة إلى اختلاف المعاملة ، واختلال ميزان العدالة . وفى إثبات (فيهم) فى الجملة الثانية دون الأولى للاشارة إلى أنهم يعاملون ذا الوجاهة والخطر أيا كان ، فهم يسمحون له بالعبث ولا ينكرون عليه ، فالفساد حينئذ يجاوز حدود الوطن ، حيث تتسع الضلالة ، ولا تستقيم النزاهة .

وأيم الله لو أن فاطمة . . الخ : اقسم الرسول — عليه الصلاة والسلام — لإزالة شك متوقع ، وليؤكد حرصه على العدالة وإقامة الحدود .

لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها : سياق العبارة أن يقول : لو أن فاطمة بنتى سرقت لقطعت يدها ، ولكنه أظهر فى موضع الإضمار لإيقاظ السامعين وتنبيههم إلى خطورة ما هو بصدده من الحديث عن وجوب رعاية الحدود ، وتمكين الحكم فى أنفسهم .

الفكرة :

يقرر الحديث الشريف عدة مبادئ :

١ — أن حدود الله وأحكامه يجب أن تلتزم وتحترم ؛ لأن في هذا صلاح الأمة وسعادتها .

٢ — أن الإسلام ينشر المساواة بين البشر ، ولا يميز بينهم في الواجبات ؛ بسبب مواضعاتهم الاجتماعية .

٣ — أن الإسلام يلتزم إقامة العدل بين الناس ، دون تفرقة بين الأقوياء والضعفاء ، فكلهم أمام منطق الحق سواء .

البيان :

١ — سرقت امرأة من بني مخزوم ، في زمن غزوة الفتح ، وكان بنو مخزوم من أشراف قريش وسادة العرب ، فأهمهم أمرها ، وخشوا أن ينفذ الرسول حكم الله فيها ، فيقطع يدها ، فيلحقهم — من أجل ذلك — العار ، وهم السادة الذين يدين الناس لهم بالطاعة ، ويقدمون لهم فروض الولاء ، وهم ممن ألفوا الثناء على فعالهم ، والتمدح بخصالهم ، فإذا أجرم واحد منهم خافوا الهزؤ بهم ، والسخرية منهم ، وتوقعوا النفور منهم ، والعيب فيهم . ولا ريب أنهم أداروا أمرهم بينهم ، واستقر رأيهم على أن يستدفعوا العار النازل بهم ، فاختاروا للشفاعة في الحد الواقع بالسارقة « أسامة بن زيد بن حارثة » — وأسامة وأبوه من أحب الناس إلى رسول الله — فغضب الرسول — عليه الصلاة والسلام — غضبا شديداً ، وأنكر أن تنتهك حرمات الله ، ويعتدى على حدوده ، ويشفع فيها هكذا ، فأعلن للناس أن في محاولة بعض المسلمين الاعتداء على حدود الله أو انتهاك حرماته هدما لمبدأي العدالة والمساواة ، ولقد كانت الأمم السابقة تفرق في المعاملة بين سادتها وضعفائها ، وتميز بين هؤلاء وهؤلاء تمييزاً طبقياً ،

فللسادة المغانم والسطوة والسلطان والمحاباة ، ولهم أن يفعلوا ما يشاءون دون أن يسألوا ، ودون أن يناقشوا فيما اجترموا ، وعلى الضعفاء احترام السادة ، والتطامن لهم ، وتحمل المظالم ، وأوضح الرسول — عليه الصلاة والسلام — أن السيد فى هذه الأمم كان إذا ارتكب جرما تغافل قومه عن جرمه ، وتركوا عقابه، وتسامحوا معه ، خوفا منه ، أو ممالأة له ، وإذا ارتكب الضعيف الجرم عينه سارعوا إلى تجريمه ، وإلى القصاص منه ، ولم يقبلوا منه عذرا ، ولهذا تطاول السادة ، واستبدوا ، وضاعت العدالة فى هذه الأمم ، وتجافى الإنصاف ، وشاعت الفوضى ، وانتشرت الجرائم ، وساد حكم الهوى ، واستشرى الفساد .

ولكى يقطع الرسول — عليه الصلاة والسلام — محاولة كهذه التى حاولها « أسامة بن زيد » ، أعلن فى صرامة وفى صراحة أن ولى الأمر مطالب بإقامة الحدود ، ولا سبيل له إلى أن يترخص فيها أو يتساهل ، ولو دعت إقامة الحدود إلى إنزال العقوبة بأهله وولده وأحب الناس إليه. فحد السرقة قطع اليد ، فلو أن فاطمة الزهراء بنت محمد رسول الله هى السارقة لقطع محمد نفسه يد ابنته قصاصا ، فما شرعت الحدود فى الإسلام لقوم دون قوم ولا لجماعة دون جماعة ، وإنما شرعت للجميع ، والجميع أمام الحق والعدل سواء، لا يفرق الإسلام بين أمير وحقير ، ولا قوى وضعيف ، ولا أبيض وأسود ، ولا سيد من الأشراف والعلية ورجل من الطغام والعامة ، « يأيها الذين آمنوا ، كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ، ولو على أنفسكم ، أو الوالدين ، والأقربين . إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما . فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » (النساء ١٣٥) .

٢ — وفى إقامة الحدود وأحكام الشريعة عقوبات وزواجر ، فهى عقوبات لمن يرتكبون الجرائم ، تنزل بهم جزاء ما أجرموا ، وكفاء

ما ارتكبوا فى حق المجتمع وحق الله من آثام ، وزواجر تزجرهم عن العود إلى جرائمهم ، وتزجر الآخرين الذين يقفون على أعراف الجريمة ، وتردعهم عن الانحراف . وفوق هذا وذاك تطمئن الناس على سلامة أموالهم وأعراضهم وأنفسهم من أن تتعرض للتلف أو السطو أو الابتزاز ، فيعيشون فى هدوء ، وينصرفون إلى أعمالهم فى أمان .

وقد اتهم بعض المفكرين الغربيين ومن يستمعون إليهم من بنى جلدتنا الإسلام بالقسوة فى قطع اليد حداً للسرقة ، وتصايحوا باسم الحرص على جمال الإنسان أن يشوه ، وغفلوا عن الحكمة فى ذلك . والحكمة تكمن فى الرغبة فى محو هذه الجريمة من المجتمع ، فإذا سرق سارق وبترت يده كانت يده هذه المبتورة إعلانا بين قومه عن جريمته ، مما يجعل الناس يزدرونه بما ارتكب ، ويعتبرون ، ويتعظون ، ويجعل المنحرفين ومن إليهم يراجعون أنفسهم قبل أن يقدموا على مثل فعلة أخيهم ، فتنقطع الجريمة ، ويأمن الناس .

٣ — والعدالة التى أعطانا الرسول — صلى الله عليه وسلم — مثلا منها هى (عدالة الحق) ، أو (العدالة القانونية) ؛ فالكل أمام الحق — أو القانون — سواء ، والعدالة عمياء ؛ لا تفرق بين غنى وفقير ، وسيد ومسود ، وإنسان وإنسان ، وقد جعل الله إقامتها من التقوى ، فقال — تعالى — : « يأيها الذين آمنوا ، كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا ، هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون » (المائدة ٨) .

لقد عاتب الله رسوله عندما وجد منه ميلا إلى الدفاع عن سارق ، وطلب إليه أن يستغفره ، وألا يجادل عن مثله من الخائنين ، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ، إذ لا بد أن ينال كل آثم وخاطئ جزاء إثمه وخطئه ، وذلك فى قصة « طعمة بن أبيرق » الذى سرق درعا من جاره « قتادة بن النعمان »

فى غرارة دقيق ، وكان بالغرارة ثقب ، جعل ينتثر الدقيق منه وهو فى طريقه إلى بيت « زيد بن السمين » اليهودى ، الذى أودعه الدرع ، ولما كشف « قتادة » سرقة درعه التمسها ، فتتبع أثر الدقيق المنتثر ، فاعترف اليهودى له أن صاحبها هو « طعمة » ، وخشى بنو ظفر — قوم « طعمة » — أن يفتضح هو ويلحقهم العار ، فذهبوا إلى الرسول ، وطلبوا إليه أن يحامى عن صاحبهم ، ويحيل التهمة على اليهودى — غير المسلم — وهم الرسول أن يفعل ، فأنزل الله — جل شأنه — عليه قوله : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ، لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما * واستغفر الله ، إن الله كان غفوراً رحيما * ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما * يستخفون من الناس ، ولا يستخفون من الله ، وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول ، وكان الله بما يعملون محيطا * ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا ، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ، أم من يكون عليهم وكيلا ! * ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما * ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه ، وكان الله عليما حكيما * ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا * ولو لا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك . وما يضلون إلا أنفسهم ، وما يضرونك من شىء . وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » (النساء ١٠٥ — ١١٣) .

٤ — واستقامت العدالة فى زمن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأقامها هو على نفسه ، ومن هذا أنه فى غزوة من غزواته جعل يقسم الغنائم ، فجاء رجل وجعل يؤلب عليه ، فضربه الرسول بعود فى يده ، فأظهر الرجل الألم مما أصابه ، وفى الحال دعاه الرسول إلى أن يقتص منه ، وكشف له عن ظهره ، ليضربه كما ضربه . وخطب الرسول أكثر من مرة ، وكان مما

بقوله : « أيها الناس ، من أخذت له مالا فهذا مالى ، فليأخذ منه . ومن ضربته ضربة فليقتص منى ، قبل يوم القيامة » .

وفى زمن الخلفاء الراشدين مارس الصحابة العدل ممارسة أعطتنا مثلا قيمة . فهذا « أبو بكر » الخليفة الأول — رضى الله عنه — يقول فى أول خطبة له بعد أن بويع بالخلافة : « . . . واعلموا أن أكيس الكيس التقى ، وأن أحمق الحمق الفجور ، وأن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له الحق ، وأن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق » ، ثم يجعل « أبو بكر » مقاله هذا دستوره .

وجاء « عمر بن الخطاب » ، فطبق العدالة على نفسه ، وعلى من يليهم ، والأخبار فى ذلك كثيرة ، منها مارواه « كعب بن أبى » أن أباه و « عمر ابن الخطاب » تخاصما أمام « زيد بن ثابت » — وكان قاضى « عمر » نفسه على المدينة فلما دخلا عليه ترك القاضى صدر مجلسه للخليفة ، ودعاه إلى الجلوس فيه قائلا : هاهنا يا أمير المؤمنين ، فلم يسكت « عمر » على ذلك ، بل قال له : هذا أول جور فى حكمك يا زيد ، سأجلس مع خصمى بين يديك . وجلسا ، وادعى « أبى » دعواه ، وأنكرها « عمر » ، وطلب « أبى » أن يحلف « عمر » اليمين ، وحاول القاضى أن يصرف « أبيا » عن طلبه فيعفى أمير المؤمنين من الحلف قائلا : ماكنت لأطلب مثل هذا لأحد سوى أمير المؤمنين . وتغير « عمر » بما حاوله قاضيه ، وحلف اليمين ، وانتهت الخصومة . . ولكن « عمر » عزل بعدها « زيد بن ثابت » من ولاية القضاء ، وقال له : لقد كنت اليوم جائرا ، نعتنى بأمير المؤمنين ، وأعددت لى مجلسا أعلى من خصمى ، وطلبت إعفائى من اليمين . والله لا تدرك القضاء — يا زيد — حتى يكون « عمر » ورجل من عرض الطريق لديك سواء .

وروى أن رجلا خاصم « على بن أبى طالب » لدى « عمر » ، فلما أخذ هذا ينظر فى الخصومة رأى « عليا » يجلس إلى جانبه ، فقال له : قم — يا أبا الحسن — فاجلس مع خصمك ، فقام « على » إلى مجلسه الجديد متألما ،

ثم تجادل الخصمان ، وحكم بينهما « عمر » وانصرف الرجل ، فسأل « عمر » «عليا» عما آلمه منه ، وهل كره شيئا حين دعاه إلى الجلوس مع خصمه ، وأجابه « على » : نعم . كرهت منك أنك كنيتني في وجود خصمي ، والتكنية ضرب من التكريم ، وكان الأولى أن تقول : قم – يا على – فاجلس مع خصمك ! . فقبله « عمر » بين عينيه ، وقال له : بأبي أنتم – آل رسول الله – لقد هدانا الله بكم ، وأخرجنا من الظلمات إلى النور .

وروى أن « جبلة بن الأيهم » – من أمراء الغساسنة قبل الإسلام – كان يطوف بالبيت ، فوطئ شاب من بنى فزارة ثوبه ، فلطمه « جبلة » لطمة جدعت أنفه ، فشكاه الفزارى إلى « عمر » ، فقال عمر لجبلة : القصاص ، أو يعفو الفزارى عنك ! ، فاعترض « جبلة » قائلا : كيف ! وأنا أمير وهو سوقة ! ، فقال « عمر » : لقد سوى الإسلام بينكما ، فلا تفاضل إلا بالتقوى ، وأخذ « جبلة » يستعفى الفزارى ويسترضيه ، فأبى ، وعلم « جبلة » أن « عمر » لابد مقتص منه ، فهرب عن الحجاز مستخفيا ، وارتد عن الإسلام . وما أهم هذا « عمر » ، فإن مثل هذا الأمير الذى لم يعمر الإسلام قلبه خطر على العدالة ، التى يحرص الإسلام على إقامتها أكثر من حرصه على أن يزداد المسلمون عددا بأمثاله ، أمثاله الذين لا يجاوز الإسلام مقالا يقولونه بأفواههم دون أن يقر فى أفئدتهم . ومثل هذا الأمير الذى لم يعمر الإسلام قلبه خطر على المساواة ، التى جعلها الإسلام حقا للناس جميعا . قال – تعالى – : « إنما المؤمنون إخوة » (الحجرات ١٠) ، وقال – تعالى – : « يأيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل ؛ لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير » (الحجرات ١٣) . والأخوة والانتساب إلى ذكر وأنثى – هما آدم وحواء – يقتضيان المساواة فى الحقوق والواجبات ، فلا مجال لتعالى السادة

والمتمولين وركونهم إلى الجاه ، ولا لذل السوقة والفقراء واتضاعهم ، فعلى هؤلاء وهؤلاء جميعا أن يتعاونوا فى سبيل إقامة الحياة ، ويتعارفوا من أجل تبادل المنافع ، وليعلموا جميعا أن التفاضل المحسوب لهم عند الله إنما يكون بما يعلم من تقواهم ، وصالح أعمالهم ، ومدى استمساكهم بالدين، والخلق القديم .

٥ — وليس يعنى هذا إنكار الإسلام قدر الجاه أو اليسار ، فإن طبيعة العمران تقتضى اعتبارهما ، قال - تعالى - : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق » (النحل ٧١) . وإنما الذى يجب أن يوضع فى قمة الاعتبار أن جاههم هذا أو يسارهم هذا لا يؤهلهم لاستعباد خلق الله والتسلط عليهم ، وإنما هم مطالبون أن يؤدوا ضريبة الجاه واليسار ، وضريبة الجاه النصفة والعدل وتوقى الظلم ، وضريبة اليسار الزكاة والصدقة وتوقى الشح . وبهذا وذاك يتوقون غضب أبناء جلدتهم من رقاق الحال ، ويشعرونهم بأخوتهم ، ويأمنون مكرهم ، وانقضاضهم عليهم ، فيسعد المجتمع ، ويستقيم أمره ، وينال الجميع رضوان الله .

٦ — وأين - من هذه الدعوة الكريمة - التمييز العنصرى والطبقى ، الذى تأخذ به الدول التى تدعى الحضارة فى الولايات المتحدة الأمريكية يحتقر البيض السود ، ولا يعاشرونهم ، ولا يعايشونهم ، ويرفضون أن يجتمعوا وإياهم فى المسكن ، والمطعم ، والمشرب ، والمنتدى ، والمدرسة ، والمستشفى ، ووسائل السفر ، وأماكن العبادة ، حتى المدافن امتدت إليها التفرقة العنصرية ، فقد حملت الأنباء (١) أن قسا أبيض أعلن أمام أكثر من مائتى شخص تجمعوا فى مدافن « ايلود » أنه سيدعو الجنود الأمريكيين الزنوج إلى أن

---

(١) جريدة (الأهرام) ١٣/١١/١٩٦٩ م

رفضوا أوامر القتال ، فى الحرب التى تفرضها الولايات المتحدة الأمريكية على « فيتنام » ، حتى يتم القضاء على التفرقة العنصرية فى المدافن ، حيث رفض القائمون على مدافن « ايلمود » السماح بدفن جندى أمريكى زنجى فيها ، مات فى هذه الحرب ، بدعوى أن المدافن مخصصة للبيض !

وفى إفريقية الجنوبية يتسلط عدة آلاف من البيض الأغراب على مقدرات البلاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ويحرمون الملايين من أصحاب البلاد الأصليين حقهم فى ممارسة شئون بلادهم !

ألا . شاهت حضارة تقوم على هذا التمييز العنصرى الأسود .

الحديث السادس عشر

عن عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – قال : كنت خلف النبى – صلى الله عليه وسلم – يوما ، فقال : « ياغلام ، إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك . احفظ الله تجده تجاهك . إذا سألت فاسأل الله . وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام ، وجفت الصحف » .

رواه الترمذى

وفى رواية غير الترمذى :

« احفظ الله تجده أمامك . تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة . واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك . واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا » .

الحديث السابع عشر

عن أبي موسى الأشعرى — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « تعاهدوا هذا القرآن ، فوالذى نفس محمد بيده لهو أشد تفلتا من صدور الرجال من الإبل فى عقلها » .

رواه الشيخان

اللغة : تعاهدوا : أمر من (تعاهد) . يقال : تعاهد فلان الشىء وتعهده أى تفقده وتردد إليه وأصلحه وحفظه ، وحقيقته تجديد العهد به ، وهذا يقتضى ملازمته . وملازمة القرآن الكريم فى تلاوته والنظر فيه والعمل بما جاء به .

تفلتا : التفلت هو التخلص وزنا ومعنى ، أو هو التخلص فى سرعة وفجأة .

عقلها : عقل الإبل . والعقل جمع عقال (مثال كتب وكتاب) ، والعقال الحبل الذى يعقل به البعير ، أى يقيد فيمنع من الانفلات والهرب .

النحو : القرآن : بدل من اسم الإشارة أو بيان له . جملة (نفس محمد بيده) جملة اسمية تقع صلة اسم الموصول ، والرابط هو الضمير فى (بيده) . جملة (لهو أشد تفلتاً) جواب القسم . تفلتا : تمييز ملحوظ . من الأولى متعلقة بتفلتاً ومن الثانية داخلة على المفضل عليه .

البلاغة : الأمر فى (تعاهدوا) للارشاد . والإشارة القريبة فى (هذا

القرآن) إشارة إلى قريب محسوس فهم يقرءونه ويسمعونه ويكتبونه ، أو إلى قريب من النفوس فهو فى قلوبهم وصدورهم هدى ونور . والتأكيد بالقسم واللام والجملة الإسمية فى جملة القسم لدفع إنكار متوقع ، فإن سوق الخبر بهذه الصورة مدعاة للانكار ، وخاصة لدى الذين لا يتوقعون انصراف الأجيال الآتية عن القرآن . وإظهار اسم « محمد » — عليه السلام — بدلا من إضماره فى جملة القسم لتمكين الحكم من نفوس السامعين . وفى عبارة (لهو أشد تفلتا من صدور الرجال من الإبل فى عقلها) تشبيه ضمنى ، شبه انفلات القرآن من صدور الرجال بانفلات الإبل من عقلها .

الفكرة : إن هذا القرآن الكريم — دستور هذه الأمة — يلزمنا تعهده ، والحفاظ عليه ، وملازمته ، والعمل بما فيه ؛ ففى هذا خير الدنيا والآخرة . أما إن أهمله المسلمون ونسوه فإن الله يرفعه من صدورهم ؛ لأنهم لم يعودوا أهلا لحمل أمانته .

البيان :

١ — القرآن الكريم « ذلك الكتاب ، لا ريب فيه ، هدى للمتقين » (البقرة ١) ، « يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » (المائدة ١٦) .

كتاب حوى من أخبار الأمم الماضية ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة ، نقب على الصحيح منها ، وغادر الأباطيل التى ألحقتها الأوهام بها ، ونبه على وجوه العبرة فيها . حكى عن الأنبياء والرسل ما شاء الله أن يقص علينا من سيرهم ، وما كان بينهم وبين أممهم ، وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم ، وآخذ العلماء من الملل المختلفة على

ما أفسدوا من عقائدهم ، وما خلطوا فى أحكامهم ، وما حرفوا بالتأويل فى كتبهم . وشرع للناس أحكاما ، تنطبق على مصالحهم ، وظهرت الفائدة فى العمل بها ، والمحافظة عليها ، وقام بها العدل ، وانتظم بها شمل الجماعة ، ثم عظمت المضرة فى إهمالها والانحراف عنها ، أو البعد بها عن الروح التى أودعته ، ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية ، كما يتبين للناظر فى شرائع الأمم . ثم جاء بعد ذلك بحكم ومواعظ وآداب ، تخشع لها القلوب ، وتهش لاستقبالها العقول ، وتنصرف وراءها الهمم ، انصرافها إلى السبيل الأمم القريب(١) .

وقد تعاهد المسلمون الأولون القرآن الكريم ؛ فأقبلوا على حفظه ، ودرسه ، يستخرجون نفائسه ، ويتعرفون حكمه وأحكامه ، وعبره ومواعظه ، ويعالجون به القلوب من رجس العقائد الباطلة والأخلاق الفاسدة ، ويدفعون به المجتمع إلى سبيل الخير والفلاح ، وطرق السعادة فى الدنيا والآخرة ، فخلد التاريخ لهم حياة ، هى مضرب الأمثال فى صدق الإيمان ، وقوة العقيدة ، والإقبال على العمل ، والانتفاع بما أودع الله الكون من أسرار ؛ وبذلك كان علمهم هو العلم ، وأحكامهم هى الأحكام ، وحياتهم هى الحياة(٢) .

وقد أوضح القرآن الكريم للناس هداهم ، ففصل لهم عقيدة الإيمان بالله وحده لا شريك له ، وبالرسل ، والنبيين ، والملائكة ، والكتب السماوية ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره . ودعاهم دعوة صريحة

---

(١) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ١٤٤ ، ط ١٣ ، دار المنار ١٣٦٨هـ .

(٢) محمود شلتوت : يسألون ، ص ١٦٨ ، مختارات الإذاعة ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥٧ م .

إلى العبادة ؛ من صلاة ، وصيام ، وزكاة ، وحج. ونظم لهم شئون الزواج ، والطلاق ، والميراث ، وشرع لهم أسس المعاملات الاقتصادية ، وما ينبغى أن يقوم من علاقات بين أفراد المجتمع ، ومن صلات بين المجتمعات الإسلامية وغيرها فى السلم والحرب . وأقام لهم الحدود التى تلتزم ؛ صيانة للأرواح ، ووقاية للأموال والأعراض ، ودرءا للمفاسد . وعلى الجملة كفل لهم سعادة الدنيا والآخرة ، فمن يعتصم به فقد هدى إلى صراط مستقيم ، قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله — تعالى — ، وسنتى » .

٢ — وعندما يجتمع المسلمون لقراءة القرآن وتلاوته ومدارسته ينزل الله عليهم سكينته ، ويغشاهم برحمته ، ويذكرهم الله فيمن عنده ، وينزل عليهم الملائكة ، ليستمعوا إليهم . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله — تعالى — ، يتلون كتاب الله — تعالى — ، ويتدارسونه بينهم ؛ إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » . وروى أسيد بن حضير — رضى الله عنه — أنه بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة رفع رأسه إلى السماء ، فإذا مثل الظلة ، فيها أمثال المصابيح ، فلما أصبح حدث النبى — صلى الله عليه وسلم — فقال له الرسول : أو تدرى ماذاك ؟ . قال : لا . قال له الرسول : « تلك الملائكة دنت لصوتك . ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها ، لا تتوارى منهم » .

٣ — ولتلاوة القرآن آداب ظاهرة وآداب باطنة[1] :

فمن الآداب الظاهرة أن يكون تاليه متطهراً ، خاشعاً ، وأن يرتله ترتيلا ،

(١) إحياء علوم الدين : ٣/٤٩٩ وما بعدها .

وفى تؤدة تمكنه من أن يتفكر فيه ويتدبر ؛ لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام . ويستحب مع القراءة البكاء عندما يتأمل القارئ ما فى الآيات من التهديد والوعيد . ويستحب أن يجهر القارئ بالقراءة إلى حد يسمع نفسه ..

ومن الآداب الباطنة : استحضار عظمة الكلام وعلوه وعظمة الله — جل شأنه — ، فإن هذا الكلام كلام الله ، وأن يحضر القارئ قلبه ، ويطرح حديث نفسه ، ومن وراء حضور القلب يتدبر ويتفهم . وعليه أن يقدر أنه هو المخصوص بكل خطاب فى القرآن ؛ فإن سمع أمراً قدر أنه المأمور ، أو نهياً قدر أنه المنهى ، أو وعداً قدر أنه الموعود فاستبشر وفرح ، أو وعيداً قدر أنه الموعد فتضاءل خيفة ، أو قصصاً فهو مسوق إليه هو ليعتبر . وعلى القارئ أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات ، فيكون له بحسب كل حال أو وجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء . . ، ومن يتصفح القرآن جدير بأن يكون حاله الخشية والحزن ، قال الحسن : (والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا كثر حزنه ، وقل فرحه ، وكثر بكاؤه ، وقل ضحكه ، وكثر نصبه وشغله ، وقلت راحته وبطالته) . وعلى القارئ أن يترقى فى درجات القراءة ، فهو — أولا — يقدر أنه يقرأ القرآن على الله فكأنه واقف بين يدى ربه ، والله ناظر إليه ومستمع منه — وثانيا — يقرأ فى حالة مناجاة ، فمقامه الحياء من الله ، وتعظيمه ، والإصغاء إليه — وثالثا — يرى فى الكلمات المتكلم ، أى الله — سبحانه وتعالى — وفى الكلمات صفاته ، وهذه درجة المقربين .

٤ — وقد تحدث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الذين يقرءون القرآن ويعملون به ، وعن الذين يعملون به دون قراءته ولا يعملون به ، وعن الذين لا يقرءونه ولا يعملون به ، فقال : « المؤمن الذى يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب ، والمؤمن الذى لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مر ـ أو خبيث ـ وريحها مر » ، فالناس أربعة أقسـام :

(ا) قسم يقرأ القرآن ويعمل به ، فهو يطيب به ظاهراً و باطناً ، وينفع الناس بما علمه منه ، فهو مثل الأترجة ، طعمها طيب ، وريحها طيب ، ومنظرها حسن ، وملمسها لين ، ولونها يسر الناظرين ، ثم هى تفيد آكلها ـ بعد الالتذاذ ـ طيب نكهة ، ودباغ معدة ، وقوة هضم .

(ب) قسم يعمل بالقرآن دون أن يقرأه ، فهو يطيب به باطناً لا ظاهراً ، فهو مثل التمرة ، طعمها طيب ، ولا ريح لها .

(ح) قسم يقرأ القرآن ولا يعمل به ، فهو يطيب به ظاهراً لا باطناً ، ولا يفيد منه ، وهو المرائى والمنافق ، ومثله كالريحانة ، ريحها طيب ، وطعمها مر .

(د) قسم لا يقرأ القرآن ولا يعمل به ، فهو عديم النفع والفائدة ، لا لنفسه ولا لغيره ، وهو المنافق الحقيقى ، ومثله مثل الحنظلة ، طعمها مر ، وريحها مر .

٥ — والحديث الذى معنا يأمرنا بتعاهد القرآن الكريم ، والمحافظة عليه ، وحياطته ، وصيانته ، والعمل به ، وينذر بانفلاته ، وتفصيه ، وذهابه من صدور المسلمين إن لم يتعاهدوه ولم يعملوا به . فهو بحاجة إلى امتلاء

الصدور منه ، وإلى استيعابه ، ووعيه ، ونقهه ، واجتلاء أسراره ، وتذوق حلاوته ، أما إنه أهملوه وتركوه ، أو قرءوه لا تجاوز قراءته حناجرهم ، وجعلوا يلوكونه بألسنتهم دون أن تفقهه قلوبهم ، فليس بالله حاجة إلى أن يتركه فى أوساطهم غريبا . وقد شبه الحديث هذا بعقل البعير وإهماله ، فطالما كان التعاهد مرعيا كفلت صيانة القرآن وحفظه، ومن وراء ذلك اليقين والعمل ، كما أن البعير يكون محفوظا وفى مأمن طالما كان مشدودا إلى عقاله شداً محكما ، فإن أهمل البعير أو عقل عقلا خفيفاً فإنه يجاذب عقاله وينفلت منه .

٦ — والعلم أشرف ما رغب فيه الراغب ، وأفضل ما طلب وجد فيه الطالب ، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب ؛ لأن شرفه يثمر على صاحبه ، وفضله ينمى على طالبه . قال الله — تعالى — : « قل : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (الزمر ٩) ، وسئل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن رجلين : أحدهما عالم ، والآخر عابد ، فقال — عليه الصلاة والسلام — : « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم » . وإنما فضل العلم العبادة ، لأن العلم يبعث على العبادة ، والعبادة مع خلو فاعلها من العلم بها قد لا تكون عبادة(١).

والعلوم قسمان : علوم دينية ، وعلوم دنيوية ، والأولى تعلمها فرض عين ، والآخرة تعلمها فرض كفاية . وعلم القرآن — من بين العلوم الدينية —

(١) أدب الدنيا والدين لأبى الحسن البصرى — ص ١٠ — ط المطبعة المصرفيه — ١٣١٨ هـ .

هو خير العلوم؛ قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، وقال — جل شأنه — : «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة؛ ليتفقهوا فى الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم؛ لعلهم يحذرون» (التوبة ١٢٢).

روى أنس — رضى الله عنه — عن الرسول — صلى الله عليه وسلم — أنه قال: «التفقه فى الدين حق على كل مسلم: ألا فتعلموا، وعلموا، وتفقهوا، ولا تموتوا جهالا». وقال الرسول — عليه الصلاة والسلام — : «من سلك طريقا يطلب به علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض والحيتان فى جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، ولكن ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر».

ومدار الامتياز إنما هو فى العمل بالعلم؛ إذ إن تحصيل العلم وحده لا يوجب الأفضلية، وإنما تأتى الأفضلية من بذل العالم ما يعلمه للناس، ونشره بينهم، ونقله إليهم، وإزالة الشبه من نفوسهم.

قال معاذ بن جبل(١): تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس فى الوحدة، والصاحب فى الخلوة، والدليل على الدين، والمصبر على البأساء والضراء، والوزير عند الأخلاء، والقريب عند

---

(١) إحياء علوم الدين: ١ / ٢٠.

الغرباء ، ومنار سبيل الجنة . يرفع الله به أقواما ، فيجعلهم فى الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم ، أدلة فى الخير تقتص آثارهم ، وترمق أفعالهم ، وترغب الملائكة فى خلتهم ، وبأجنحتها تمسحهم ، وكل رطب ويابس لهم يستغفر ، حتى حيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، والسماء ونجومها ؛ لأن العلم حياة القلوب من العمى ، ونور الأبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف . يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلا ، والتفكر فيه يعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام . به يطاع الله — عز وجل — ، وبه يعبد ، وبه يوحد ، وبه يمجد ، وبه يتورع ، وبه توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام والعمل تابعه . يلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء . نسأل الله — تعالى — حسن التوفيق .

الحديث الثامن عشر

عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : « أما . إنها ستكون فتنة ! قلت : فما المخرج منها يارسول الله ؟ . قال : كتاب الله – تعالى – ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل . من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله . هو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : (إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدي إلى الرشد ، فآمنا به) . من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

رواه الترمذي

الحديث التاسع عشر

عن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا ؛ فكان منها نقية قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ؛ فشربوا ، وسقوا ، وزرعوا . وأصابت منها طائفة أخرى ، إنما هي قيعان ؛ لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ – فذلك : مثل من فقه في دين الله ، ونفعه ما بعثني الله به ، فعلم ، وعلم . ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » .

رواه الشيخان

اللغة : مثل ما بعثني الله به . . : صفته وحاله . الهدى : بضم الهاء وفتح الدال اسم للرشاد والدلالة ، ويكون مصدرا للفعل (هدى) مثله الهدى بفتح فسكون والهداية ، ويقصد به هنا الخير والشرع وسائر ما يرضى عنه الله . الغيث : المطر الكثير . الكلأ : يابس النبات ورطبه . العشب : رطب النبات بخاصة . أجادب : جمع أجدب وهو الأرض لا تنبت . قيعان : جمع قيعة ، وهي الأرض الملساء التي لا تصلح للانبات .

النحو : الجمل الآتية صلات الموصول : بعثني الله به – فقه في دين الله – لم يرفع بذلك رأسا – أرسلت به . والجمل الآتية نعوت : أصاب أرضا – قبلت الماء – أمسكت الماء – لا تمسك ماء . (كان) في قوله : فكان

منها نقية ، وقوله : وكانت منها أجادب : يحتمل أن تكون زائدة ، وتامة ، وناقصة .

البلاغـــة:

فى الحديث تشبيه ، ويجوز أن يكون تشبيها تمثيليا ، شبهت الهيئة المنتزعة مما جاء به النبى — صلى الله عليه وسلم — واسترشد به الناس مع قبول بعض منهم عملا وتعليما وبعض توصيلا فقط وعدم قبول بعض بالهيئة المنتزعة من نزول الغيث على أرض ذات أقسام مماثلة لأقسام هؤلاء الناس . ويجوز أن يكون تشبيه مفردات ، فالناس ثلاث طوائف : طائفة تلقت علم القرآن والنبوة وانتفعت به ونقلته إلى من انتفع به ، وطائفة تلقت علم القرآن والنبوة ولم تنتفع هى به ولكنها نقلته إلى من انتفع به ، وطائفة أهملت هذا العلم فلم تنتفع به ولم تنقله إلى من ينتفع به . والأرض ثلاثة أقسام . أرض طيبة تقبل الماء وتنتفع به وتخرج ألوان النبات والزرع ، وأرض جدباء تمسك ماء وتحجزه وتدخره لوقت الحاجة وإن كانت هى لم تفد منه ، وأرض ملساء لا تنبت ولا تقبل الماء . وكل قسم من الناس شبيه بنظيره من الأرض .

وقوله (فذلك مثل من فقه فى دين الله . . . الخ الحديث) جاء به ؛ لتثبيت المعنى فى ذهن السامعين . ويناظر قوله (ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به) القسم الثالث من الناس بجامع عدم الإفادة والاستفادة فى كل . وأما قوله (مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم) فيحتمل أنه يناظر القسمين الأول والثانى من الناس معا بجامع النفع فى كل ، فهاتان الطائفتان كلتاهما نافعة ، وإن زادت الطائفة الأولى إفادة ، ويحتمل أن يكون قوله : (مثل من فقه فى دين الله) نظير القسم الثانى ، وقوله : (ونفعه ما بعثنى الله به فعلم

وعلم) نظير القسم الأول ويكون أصله [ومثل من نفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم] ، وهنا — إذن — لف ونشر غير مرتب .

وفى عطف (العشب) على (الكلأ) إطناب ، نشأ من ذكر الخاص بعد العام للتنبيه إلى أن النفع بالرطب أعظم .

وفى قوله : (إنما هى قيعان) قصر ، طريقه إنما ، وهو قصر إضافى ، وقصر موصوف على صفة .

وفى قوله : (لم يرفع بذلك رأساً) كناية عن التكبر وعدم القبول .

الفكرة : يحث الرسول — عليه الصلاة والسلام — المسلمين فى كل جيل على أن ينتفعوا بعلم القرآن والنبوة ، ويستجيبوا له ، وينقلوه إلى الأخلاف ، حتى يرفعوا راية الإسلام ، ويعزوا ، ويسعدوا . وينفرهم من عدم الانتفاع من هذا العلم ، ومن الإحجام عنه .

البيان :

١ — بعث الله سبحانه وتعالى — الرسل ، يرشدون العقل إلى معرفة الله ، وما يجب من صفاته ، ويجمعون كلمة الخلق على إله واحد ، لا فرقة معه ، وينهضون نفوسهم إلى التعلق به فى جميع الأعمال والمعاملات ، ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الأوقات تذكرة لمن ينسى ، وتزكية مستمرة لمن يخشى ، تقوى ما ضعف منهم ، وتزيد المستيقن يقينا . بعثهم الله يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم ، وشهواتهم ، وتنازعته مصالحهم ولذاتهم ، فيفصلون فى تلك الخصومات بأمر الله الصادع ، ويؤيدون بما يبلغون عن الله ما تقوم به المصالح العامة ، ولا تفوت به المنافع الخاصة . بعثهم الله يعودون بالناس إلى الألفة ، ويكشفون لهم سر المحبة ، وينبهونهم إلى أن فيها انتظام شمل الجماعة ،

وأن عليهم مجاهدة أنفسهم ليستوطنوا المحبة قلوبهم، ويشعروها أفئدتهم، يعلمونهم - كذلك - أن يرعى كل حق الآخر وإن كان لا يغفل حقه هو، وألا يتجاوز فى الطلب حده، وأن يعين قويهم ضعيفهم، ويمد غنيهم فقيرهم، ويهدى راشدهم ضالهم، ويعلم عالمهم جاهلهم. بعثهم الله يضعون بأمر الله - تعالى - حدودا عامة، يسهل عليهم أن يردوا إليها أعمالهم، كاحترام الدماء البشرية إلا بحق، واحترام الأعراض، ويشرعون لهم مع ذلك أن يقوموا أنفسهم بالأخلاق الفاضلة، كالصدق، والأمانة، والوفاء بالعقود، والمحافظة على العهود، والرحمة بالضعفاء، والإقدام على نصيحة الأقوياء، والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء. بعثهم يحملون الناس على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية إلى طلب الرغائب السامية. بعثهم يفصلون جميع ذلك للناس بما يؤهلهم لرضاء الله - تعالى - عنهم، أو يعرضهم لسخطه عليهم، ثم يحيطون بيانهم إلى الناس بنبأ الدار الآخرة وما أعد الله فيها من الثواب وحسن العقبى لمن وقف عند حدوده وأخذ بأوامره وتجنب الوقوع فى محظوراته. بعثهم يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده فى العلم به، مما لو صعب على العقل اكتناهه لم يشق عليه الاعتراف بوجوده. فبعثة الرسل حاجة من حاجات البشر، وكمال لنظام اجتماعهم، وطريق لسعادتهم فى الدنيا والآخرة(١).

٢ — والعلوم قسمان: عقلية، وشرعية (٢)

والأولى - العلوم العقلية - غير كافية فى سلامة القلب، وإن كان محتاجاً إليها. فالمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور،

(١) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ١١٨ وما بعدها.
(٢) إحياء علوم الدين ١٣٦٦/٨ وما بعدها.

فإن العلوم العقلية كالأغذية، والعلوم الشرعية كالأدوية، والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء، فكذلك أمراض القلوب، لا يمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة، وهذه وظائف العبادات والأعمال التي ركبها الأنبياء — صلوات الله عليهم — لإصلاح القلوب بها، فمن لا يداوي قلبه المريض بمعالجات العبادة الشرعية مكتفيا بالعلوم العقلية استضر بها كما يستضر المريض بالغذاء(١).

والعلوم الشرعية أربعة أضرب(٢).

(أ) الأصول: وهي كتاب الله، وسنة الرسول، وإجماع الأمة، وآثار الصحابة.

(ب) الفروع: وهي الفقه، والأخلاق، والسياسة.

(ح) المقدمات أو الآلات: وهي علوم اللغة، وما إليها.

(د) المتممات: كعلم القراءات ومخارج الحروف، وعلم أصول الفقه، وعلوم التفسير والحديث.

ولكل علم فضيلة. يقول الإمام الشافعي — رضي الله عنه —: من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن تعلم الفقه نبل مقداره. ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن تعلم العربية رق طبعه.

---

(١) ما لم يكن الغذاء موصوفا لطبه، فهو إذن من نوع الدواء قبل أن يكون من نوع الغذاء، وما الدواء في حقيقته إلا مطعوم أو مشروب أعد إعدادا خاصا ليفيد الجسم منه أسرع فائدة وأوفاها.

(٢) إحياء علوم الدين ١ / ٢٨ وما بعدها.

٣ - وفى الإنسان جانب حيوانى وجانب ملائكى، وهو فى الأول مادى، أرضى، يسعى وراء مطالب بدنه، وينشد الملاذ فى المطاعم والمشارب، وفى الجانب الآخر روحانى سماوى، يسعى وراء الكمالات، وينشد العلوم والمعارف التى يترقى بها فى هذه الكمالات، حيث يتخلص من سجن البدن، ويطهر من أدران الحياة، وتصفو مرآة قلبه، ويبصر الرشد من الغى، ويؤمن، ويهتدى، ويعرف الطريق إلى الله، فيكون ممن يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، و « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين »، ومن لم يرد به خيرا لم يبال الله به. ومن فقه فى دين الله وتلقى بالقبول علم القرآن والنبوة، وانتفع به، ونقله إلى من ينتفعون به — كان كالأرض الطيبة النقية، التى تنتفع بالغيث، فتزدان بالحياة، وتمد الناس بالخير، وتجود به عليهم، ويكون فيها مطعم لهم، ومرعى لأنعامهم، ومراد لمسارحهم، ورياض لدنياهم، ومن فقه فى دين الله وتلقى بالقبول علم القرآن والنبوة، واقتصر على أن ينتفع هو به دون أن ينقله إلى الآخرين كان كالأرض المجدبة التى تمسك الماء، وتدخره للناس إلى وقت النفع والحاجة. ومن أعرض عن الله واستكبر عن دينه فهو كالأرض القيعة الملساء، لا تتشرب الماء، ولا تمسكه، فلا تنتفع به، ولا تنفع به غيرها. وخير هؤلاء من اتبع رضوان الله ودعا إلى صراط مستقيم، ورشد بدين الله وأرشد إليه، واهتدى به وهدى إليه وتعلمه وعلمه، وحيى به وفيه وأحيا، فى نفوس الآخرين، وعمل به ودل غيره على طريقه واستبان له وبينه للناس؛ بذلك يكون من خلفاء رسول الله الذين قال فيهم: « يحيون سنتى، ويعلمونها عباد الله ».

« وليس يجهل فضل العلم إلا أهل الجهل؛ لأن فضل العلم إنما يعرف بالعلم، وهذا أبلغ فى فضله؛ لأن فضله لا يعلم إلا به. فلما عدم الجهال

العلم الذى به يتوصلون إلى فضل العلم جهلوا فضله ، واسترذلوا أهله ، وتوهموا أن ماتميل إليه نفوسهم من الأموال المقتناة والطرف المشتهاة أولى أن يكون إقبالهم عليها ، وأحرى أن يكون اشتغالهم بها . وقد قال ابن المعتز فى منثور الحكم : (العالم يعرف الجاهل ؛ لأنه كان جاهلا . والجاهل لا يعرف العالم ؛ لأنه لم يكن عالما) وهذا صحيح . . . لأن من جهل شيئا عاداه(١)» .

جعلنا الله ممن يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه .

(١) أدب الدنيا والدين : ص ١٠

الحديث المكمل العشرين

عن أبي بن كعب — رضى الله عنه — عن النبي — صلى الله عليه وسلم — « أن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل ، فسئل : أى الناس أعلم ؟ . فقال : أنا . فعتب الله عليه ، إذ لم يرد العلم إليه ، فقال له : بلى . لى عبد بمجمع البحرين [1] ، هو أعلم منك . قال : أى رب ؛ ومن لى به ؟ . قال تأخذ حوتا ، فتجعله فى مكتل [2] ، حيثما فقدت الحوت فهو ثم . وأخذ حوتا فجعله فى مكتل ، ثم انطلق هو وفتاه يوشع بن نون ، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما ، فرقد موسى ، واضطرب الحوت ، فخرج ، فسقط فى البحر ، فاتخذ سبيله فى البحر سربا [3] ، فأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار مثل الطاق [4] ، فانطلقا يمشيان بقية ليلتهما ويومهما حتى إذا كان من الغد قال لفتاه : آتنا غداءنا ؛ لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا [5] — ولم يجد موسى النصب حتى جاوز حيث أمره الله — قال له فتاه : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا [6] — فكان للحوت سربا

---

(١) مجمع البحرين : مكان التقائهما ، وقد قيل : إنه فى شرقى البحر المتوسط عند الدردنيل ، أو فى غربيه عند طنجة وجبل طارق ، أو فى وسطه عند تونس ، أو فى نقطة التقاء البحر الأحمر والمحيط عند باب المندب .

(٢) المكتل (وزان المنبر) : الزنبيل .

(٣) سربا أى طريقا أو على الحال أى ساربا أى ذاهبا على وجهه .

(٤) الطاق : ما عقد من الأبنية .

(٥) النصب : التعب وزنا ومعنى .

(٦) عجبا أى طريقا ذا عجب ، أو على الحال أى عاجبا .

ولها عجبا — قال له موسى : ذلك ما كنا نبغى ، فارتدا على آثارهما قصصا ؛ رجعا يقصان آثارهما ، حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى بثوب[1] ، فسلم موسى ، فرد عليه فقال : وأنى بأرضك السلام[2] ! قال : أنا موسى . قال: موسى بنى إسرائيل ؟ . قال : نعم . أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا . قال ياموسى ، إنى على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه . قال : ستجدنى — إن شاء الله — صابرا ، ولا أعصى لك أمراً . قال : فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا . فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ، فمرت بهما سفينة ، كلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر ، فحملوهم بغير نول[3] . فلما ركبا فى السفينة جاء عصفور ، فوقع على حرف السفينة ، فنقر فى البحر نقرة أو نقرتين . قال له الخضر : ياموسى ، مانقص علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر . إذ أخذ الفأس فنزع لوحا[4] . قال : فلم يفجأ موسى إلا وقد قلع لوحا بالقدوم ، فقال له موسى : ماصنعت ! قوم حملونا بغير نول ، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها : لقد جئت شيئا إمرا[5] . قال : ألم أقل : إنك لن تستطيع معى صبرا ! قال: لاتؤاخذنى بما نسيت ، ولا ترهقنى من أمرى عسرا . فكانت الأولى من موسى نسيانا .

(١) مسجى بثوب : مغطى به.

(٢) هذا مقول الخضر فهو تفسير رد السلام . وفى رواية أخرى التصريح باسم الخضر قائله .

(٣) النول (بالفتح) الأجر على العموم أو جعل السفينة بخاصة .

(٤) الآخذ والنازع اللوح هو الخضر بدليل سياق الآية ، والرواية الأخرى .

(٥) الإمر (بالكسر) : الأمر المنكر العجيب .

فلما خرجا من البحر مروا بغلام يلعب مع الصبيان، فأخذ الخضر برأسه ، فقلعه بيده هكذا — [وأومأ الراوى بأطراف أصابعه كأنه يقطف شيئا] — فقال له موسى : أقتلت نفسا زكية بغير نفس ! . لقد جئت شيئا نكرا[1]. قال : ألم أقل لك : إنك لن تستطيع معى صبرا ! قال : إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى؛ قد بلغت من لدنى عذرا . فانطلقا ، حتى إذا أتيا أهل قرية ، استطعما أهلها ، فأبوا أن يضيفوهما ، فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض مائلا (فأقامه)[2].. قال: قوم أتيناهم ، فلم يطعمونا ولم يضيفونا ، عمدت إلى حائطهم ! لو شئت لا تخذت عليه أجرا . قال : هذا فراق بينى وبينك ، سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا. قال النبى — صلى الله عليه وسلم — :

يرحم الله موسى ، لوددنا لو صبر حتى يقص الله علينا من أمرهما ! » .

(رواه البخارى)

(١) النكر (بالضم وبضمتين) : المنكر والأمر الشديد .
(٢) التكملة من القرآن ومن الرواية الأخرى فى (كتاب العلم) .

الحديث الحادى والعشرون

عن أبي هريرة – رضى الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين» .

(رواه البخارى)

اللغة : يلدغ : من اللدغ ، وهو اللسع وزنا ومعنى ، وقيل : اللدغ لذوات الناب كالحية والثعبان ، واللسع لذوات الإبر التى تضرب بمؤخرها كالعقرب والزنبور .

النحو : روى الفعل مرفوعا ومجزوما ، فـ (لا) فى الرواية الأولى نافية ، وفى الثانية ناهية . المؤمن : نائب فاعل .

البلاغة : فى رواية الجزم يكون الحديث إنشاء صريحا بالنهى ، والقصد منه إرشاد المؤمن إلى خطر الغفلة والاستسلام للخديعة . وفى رواية الرفع يكون الحديث خبراً مقصوداً به الإنشاء ، فالجملة خبر لفظا إنشاء معنى ، ولا يقبل أن يكون خبراً صريحا لسببين : أولهما ، لتتوافق رواية الرفع مع رواية الجزم ، والآخر لما هو معروف أن المراد من الحديث نهى المؤمن عن الغفلة وليس الإخبار عنه بها ، وإلا لتخلف الخبر عن كثير من المؤمنين، فيلزم كذب الخبر ، أو خروج هؤلاء عن الإيمان ، وكلاهما مرفوض . وقد يقال : إن الخبرية الصريحة جائزة على معنى أنه لا ينبغى للمؤمن إذا نكب فى أمر بوجه من الوجوه أن يعود إليه ، أو على أن المراد بالمؤمن الذى لا يستغفل هو المؤمن الكامل المتعرف على غوامض الأمور ، حتى يصبح حذراً مما يقع ، أما المؤمن المغفل فقد يلدغ مرتين ومراراً .

الفكرة : إرشاد المؤمن إلى أن يكون كيسا فطنا ، يعتبر بالماضى ، ويتخذ منه عبرة لمواجهة واقعه ، وعظة ينتفع بها فى مستقبله . فإنه مما يأباه الدين أن نعيش فى غفلة ، ولا نعتبر بما يقع لنا من أحداث ، ولا نتعظ ، ولا نفيد من تجاريب الحياة .

البيان :

١ — يروى شراح الحديث أن شاعراً مشركا هجاء اسمه « أبو عزة الجمحى » كان يهجو المسلمين ، ويثلبهم ، ويعيبهم ، ويحرض عليهم ، اشترك مع المشركين فى معركة (بدر) ضد المسلمين ، وأسره المسلمون فيمن أسروا من المشركين ، فجعل يتذلل للنبى — صلى الله عليه وسلم — ويستعطفه ، ويضرع إليه أن يمن عليه بالحرية بدون فداء ؛ لضعفه وفقره ، وتأثر الرسول ، فمن عليه ، وأطلقه ، ولكنه عندما عاد إلى مكة جعل ينال من المسلمين بشعره ويهجوهم ، مثلما كان ينال منهم ويهجوهم من قبل . وفى معركة (أحد) حضر المعركة فيمن حضر من المشركين ، وأسره المسلمون مرة ثانية ، فعاد إلى التذلل والاستعطاف والضراعة ، وإلى ذكر الضعف والفقر ، فقال له الرسول : لا تمسح عارضيك بمكة وتقول : سخرت بمحمد مرتين . وأمر به فقتل ، وقال فيه الرسول الحديث الذى معنا (لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين) ، فسار مثلا .

٢ — ولا نقف الجدوى من هذا الحديث — أو هذا المثل — عند سببه ، فإن الرسول — صلى الله عليه وسلم — يطرح قضية الحذر والفطنة والكياسة فى مقابل الغفلة والبلاهة والحمق . يقول أستاذنا الشيخ « عبد الحليم قادوم » : قد يرى كثير من الناس أن الصلاح والتقوى فى البلاهة والغفلة ، وأن الكياسة والتفطن لدقائق الأمور والتدبر لعواقبها ووزنها الصحيح وتقديرها التقدير الحسن من آيات المكر والخبث . وتلك عقيدة خاطئة ، وكذبة جارمة ، ما أنزل الله بها من سلطان ، ولا أقرها شرع صحيح ، ولا قبلها عقل

رجيح وكيف تكون الغفلة والبلاهة من سمات الإيمان وخلائل الصلاح ، وهما - أى الغفلة والبلاهة - تجران صاحبهما إلى الوقوع فى المآثم والخوض فى المحارم من حيث لا يحتسب ، فالأبله المغفل كثيراً ما يخطئ فى تدبير أمور دنياه ، فيدلس على من يتعامل معهم ، أو يضارهم فى أمور قد تخفى على مثله وهو يظن أنه يسدى إليهم جميلا وما هو بالجميل ، وقد يخدعه غيره فيئوب هو بالصفقة الخاسرة والتجارة البائرة . وإذا وكل إليه شأن من شئون الدولة فما أحراه أن يسيء تصريفه ، ويعكس وجه الصواب فيه ! ، فيدير الأمور منكوسة على رءوسها من حيث يديرها أولو الألباب قائمة مستوية ، ويأتى البيوت من سقوفها من حيث يطرقها العقلاء من أبوابها ، ويكون نكبة على من يتولى أمرهم من حيث يكون الحازم اللبيب رحمة عليهم وبرداً وسلاما . وخلاصة القول : أن الأبله المغفل لا يصلح لشأن من شئون الدنيا ولا لأمر من أمور الدين ، لأنه يجود بعقله وشرفه وكرامته ، وذلك جود - لو تعلمون - أثيم .

٣ - وقد حث الدين المسلم على إعمال العقل والفكر والتدبر فى كل الأمور ؛ فبهذا يتعرف حقائق الأمور ، ويفرق بين الحق والباطل ، ويصيب الفكرة ، ويفيد من تجاريب الحياة ، ويبلغ أوساط الأمور . قال - تعالى - : « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً . وما يذكر إلا أولو الألباب » (البقرة ٢٦٩) ، وقال : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » (آل عمران ١٩٠) . وقال : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » (يوسف ١١١) . وقال : « أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ! . إنما يتذكر أولو الألباب » (الرعد ١٩) ، وقال : « يقلب الله الليل والنهار . إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » (النور ٤٤) ، وقال : « كتاب أنزلناه إليك ، مبارك ؛ ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب »

(ص ٢٩) وقال : « قل : هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون . إنما يتذكر أولو الألباب » (الزمر ٩) ، وقال : « فاعتبروا ، يا أولى الأبصار » (الحشر ٢) . وروى عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « ما اكتسب المرء مثل عقل يهدى صاحبه إلى هدى ، أو يرده عن ردى » . وفى الأثر : « لكل عمل دعامة ، ودعامة عمل المرء عقله ، فبقدر عقله تكون عبادته لربه » . أما سمعتم قول الفجار : (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) . ومما قيل :

يزين الفتى فى الناس صحة عقله — وإن كان محظوراً عليه مكاسبه
يشين الفتى فى الناس قلة عقله — وإن كرمته أعراقه ومناسبه
يعيش الفتى بالعقل فى الناس . إنه — على العقل يجرى علمه وتجاربه
وأفضل قسم الله للمرء عقله — فليس من الأشياء شىء يقاربه
إذا أكمل الرحمان للمرء عقله — فقد كملت أخلاقه ومآربه

والعاقل يتروى ، ويستبصر ، ويحاسب نفسه دائما ، ويقدر لرجله قبل الخطو موضعها ، ويراقب الله فيما يفعله ، وفيما يدعه ، ويجعل دنياه مطية لآخرته .

٤ - أما الهوى وما يولده من حمق وبلاهة وغفلة « فهو عن الخير صاد ، وللعقل مضاد ، لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها ، ويظهر من الأفعال فضائحها ، ويجعل ستر المروءة مهتوكا ، ومدخل الشر مسلوكا(١) » . ومن أطاع هواه أعطى عدوه مناه .

إن الهوان هو الهوى قلب اسمه — فإذا هويت فقد لقيت هوانا

---

(١) أدب الدنيا والدين : ص ٢ .

يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت . والأحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني » .
فالأحمق ينقاد إلى هوى نفسه ، ويندفع فى تصرفاته وأعماله ، ويخضع للشيطان ، ويتكالب على لذة لحظته ، فيطيش سهمه ، ويعيش فى عجز وهوان ، تنضح عليه بلاهته ، ويصطلى من غفلته ، فلا يعد من أهل الفطانة ، ولا ينسب إلى الحزم والكياسة . ولا يوصف بما يوصف به المؤمن من رجاحة الحلم ، وإصابة الرأى .

الحديث الثانى والعشرون

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير . احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز ، وإن أصابك شىء فلا تقل : لو أنى فعلت كذا كان كذا وكذا ؛ ولكن قل : قدر الله ، وما شاء فعل ؛ فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » .

(رواه مسلم)

الحديث الثالث والعشرون

عن النعمان بن بشير — رضى الله عنهما — أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — قال : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ! . فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » .

(رواه البخارى)

اللغة : حدود الله : المراد بها أحكام شريعته . والحدود جمع حد ، وهو فى اللغة الحاجز بين الشيئين أو منتهى الشىء ، ويطلق أيضاً على المنع . والمناسبة بين المعنيين الشرعى واللغوى أن أحكام الشريعة الغراء تحجز الناس عن الشر ، وتضع نهاية لتطلعاتهم الدنيوية الدنيئة ، وتمنعهم من الفساد . استهموا : اقترعوا ، وهو من السهم ، والمستهمون والمتساهمون يصيب كل منهم سهما . أصاب (هنا) : فعل متعد بمعنى نال ، تقول : أصاب فلان بغيته أى نالها . أعلاها وأسفلها : كلاهما وصف على وزن أفعل ، من : علا وسفل ، وباب علا : قعد ودخل وفرح ورضى ، وباب سفل : كرم وفرح وقعد . استقوا : طلبوا السقى كاستقوا ، والسقى الرى بالماء .

النحو : أصاب : فعل ماض ، فاعله بعضهم ، ومفعوله أعلاها . جملة (إذا استقوا . . الخ) الشرطية فى موقع خبر كان . لو أنا خرقنا . . الخ : لو للتمنى ، قال ابن الضائع وابن هشام : إنها قسم برأسها لا تحتاج الى جواب مثل احتياج

لو الشرطية ، ولكن قد يؤتى لها بجواب منصوب كجواب ليت ، وقال بعضهم : هى لو الشرطية أشربت معنى التمنى ؛ بدليل أنهم جمعوا لها بين جوابين : جواب منصوب بعد الفاء وجواب باللام كقول مهلهل بن ربيعة عندما أخذ بثأر أخيه كليب :

فلو نبش المقابر عن كليب   فيخبر بالذنائب أى زير
بيوم الشعثمين لقر عينا   وكيف لقاء من تحت القبور

وقال ابن مالك : هى لو المصدرية أغنت عن فعل التمنى .

البلاغة : التشبيه فى الحديث تشبيه تمثيل ، فيه تشبيه جماعة المسلمين فى رعايتهم لحدود الله وأحكام الشريعة ، بعض منهم أصاب منها قسطا كبيرا ، وفقهها ، فهو يحرص عليها ، ويبذل فى سبيلها من النصح والإرشاد ونصرة الفضيلة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ووقف الفساد ، وبعض منهم وقف على أعراف هذه الحدود ، ولم يفقهها ، فهو يتملص منها ، وهؤلاء الأخيرون هم فى رعاية الأولين الذين يجب عليهم أن يقوموا اعوجاج من اعوج ، وإلا أصابهم معهم النكال والخراب — تشبيه هذه الجماعة بجماعة السفينة ، الذين قسموها فيما بينهم ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، وتصرف الذين فى أسفلها — أو كادوا — فى نصيبهم من السفينة تصرفا أخرق أحمق ، يعرضهم وإخوانهم الأعلين للغرق والهلاك ، فوجب على هؤلاء أن يقفوهم ، ويضربوا على أيديهم ، وإلا ضاعوا جميعا . وقد يقال : إن فى الحديث ثلاثة تشبيهات : تشبيه حدود الشريعة وأحكامها بالسفينة بجامع أن كلا أداة للنجاة والوصول إلى بر السلامة ، وتشبيه القائمين على حدود الله وهم الذين يحلون ما أحل الله ويحرمون ما حرمه ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بمن يركبون أعلى السفينة ، فهم يحسنون قيادها ، ويصوبون وجهتها ، ويدبرون سكانها ، وتشبيه الواقعين فى حدود الله العابثين بالحرمات بمن يركبون أسفل السفينة فهم لا ينظرون أبعد من

يحيطهم ومما تراه أعينهم ، فالعلو المعنوى والمكانة الرفيعة شبيه بالعلو الحسى ، والسفل المعنوى والانحطاط شبيه بالسفل الحسى ، ومع ذلك نطمئن إلى تشبيه التمثيل أكثر مما نطمئن لاعتبار التشبيه المتعدد .

لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا : نكتة التمنى بلو هى الإشعار بعزة المتمنى وندرته بإظهاره فى صوره الممتنع ، أخذا من أصل وضع لو فى الامتناع .

وقد ذكر الحديث الهلاك مرة واحدة والنجاة مرتين ، لتأكيد الأخذ بأسباب النجاة .

الفكرة : إرشاد القوامين على أحكام الشريعة أن يحيطوها بسياج من الصيانة ، وأن يأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر ، ويحقوا الحق ، ويبطلوا الباطل ، وألا يسمحوا للعبث بالشريعة وأحكامها ، وأن يضربوا على يد كل عاص وعابث وفاسق ومفسد ، وألا يدعوهم وأمثالهم لحماقاتهم التى قد تودى بالجميع .

البيان :

١ — كفل الإسلام للمسلم عدة حريات . من أهمها :

(أ) الحرية فى الحياة والبقاء ، فليس لأحد أن يسلبه حياته إلا بالحق ، وليس لأحد أن يبخع نفسه وينتحر ؛ قال — تعالى — : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » (الأنعام ١٥١ والإسراء ٣٣) . وقال — تعالى — : « كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » (المائدة ٣٢) . وقال — سبحانه — : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم » (الأنعام ١٤٠) . وقال : « ولا تقتلوا أنفسكم ؛ إن الله كان بكم رحيما * ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا ، وكان

ذلك على الله يسيرا » (النساء ٢٩ — ٣٠) وقال : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق . نحن نرزقكم وإياهم » (الأنعام ١٥١) . وقال : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق . نحن نرزقهم وإياكم ؛ إن قتلهم كان خطئا كبيرا » (الإسراء ٣١) . وقال - سبحانه - فى وعيد تنخلع له القلوب على جريمة القتل : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه ، وأعد له عذابا عظيما » (النساء ٩٣) . وقال النبى — صلى الله عليه وسلم - مصورا جزاء من يبخع نفسه . « من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن قتل نفسه بسم فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو متردٍ فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا » .

(ب) الحرية الشخصية فى الزواج ، والطلاق ، والإقامة ، والسفر ، والسكنى ، والتعلم ، والمأكل ، والمشرب ، والملبس ، والزينة ، وسائر الحريات الشخصية المباحة ؛ بشرط ألا يجاوز الحدود المشروعة ، ولا يتطاول على الآخرين ، أو يعتدى عليهم ، أو يسىء بحريته إليهم . ونذكر بعض النصوص المتصلة ببعض هذه الأمور ، ففى الزواج تكون المعاشرة بالمعروف ، قال — تعالى — : « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » (النساء ١٩) ، والرضا بواحدة من النساء . قال - تعالى - : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » (النساء ١٢٩) وقال : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » (النساء ٣) فإذا ساءت العشرة ، وبلغ الأمر حد الطلاق فليكن طلاقا بإحسان مع إيتاء المرأة حقها . قال - تعالى - : « الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا » (البقرة ٢٢٩) ، وقال : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولا تتخذوا آيات الله هزوا » (البقرة ٢٣١) .

(ح) الحرية فى تملك المال بمختلف الوسائل التى أحلها الله من : ميراث ، وشراء ، وعمل بأجر ، وإحياء موات ، وغيرها ، بشرط أن يكسب ماله من حلال ولا يكسبه خبيثا ، وأن يؤدى زكاته ولا يكنزه ، ولا يحتجنه أو يحبسه للإضرار بالمجتمع . قال تعالى — : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ؛ ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا . وأحل الله البيع وحرم الربا » (البقرة ٢٧٥) . وقال — تعالى — : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم . بل هو شر لهم ؛ سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » (آل عمران ١٨٠) ، ودعا الله إلى تحرى الطيبات من الرزق والبعد عما لا يحل أخذه فقال فى أموال اليتامى : « وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ؛ إنه كان حوبا كبيرا » (النساء ٢) وقال : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا ، وسيصلون سعيرا » (النساء ١٠) . وقال — سبحانه — يصور جزاء الذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا يعطون حق الله فيها : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يحمى عليها فى نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . هذا ما كنزتم لأنفسكم ؛ فذوقوا ما كنتم تكنزون » (التوبة ٣٤ — ٣٥) .

(ى) حرية التصرف فى المال بالبيع والتأجير والهبة والوصية وغيرها من سائر التصرفات المباحة ، بشرط ألا يلحق تصرفه ضرراً بنفسه أو بالمجتمع . فالدين يوثق ويكتب وتطلب الشهادة عليه ، سواء أكان دينا صغيراً أم كبيراً . قال تعالى — : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليكتب ، وليملل الذى عليه الحق ، وليتق الله ربه ،

ولا يبخس منه شيئا ، فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ؛ أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى . ولا يأب الشهداء إذا مادعوا ، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله . ذلكم أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا » (البقرة ٢٨٢) . والإنفاق — أيا كان سبيله ونوعه — إنفاق من غير إسراف . قال — تعالى — : « وكلوا من ثمره إذا أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا ؛ إنه لا يحب المسرفين » (الأنعام ١٤١) . وقال : « يابنى آدم ؛ خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا ، واشربوا ، ولا تسرفوا ؛ إنه لا يحب المسرفين » (الأعراف ٣١) . ووصف القرآن الكريم عباد الرحمن بعدة أوصاف ومنها الاعتدال فى الإنفاق ، قال — تعالى — : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » (الفرقان ٦٧) ودعا الله إلى حفظ مال اليتامى وألا يعطوه إلا إذا رشدوا ، فقال : « وابتلوا اليتامى ، حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم » (النساء ٦) . وشرع الله الحجر على السفهاء ، فقال : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما » (النساء ٥) .

(هـ) حرية الرأى فى الشئون الخاصة والعامة ، وفى النقد والنقد الذاتى ؛ طلبا للكمال وتنبها وتنبيها إلى النقص ، بشرط ألا يتخذ أى من أولئك وسيلة إلى الاعتداء على حرية الغير أو مصادرتها .

ومن هذه الحرية حرية العقيدة ؛ « وقل : الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » (الكهف ٢٩) ، « لا إكراه فى الدين ؛ قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها » (البقرة ٢٥٦) . « إن تكفروا فإن الله غنى

منكم — ولا يرضى لعباده الكفر — وإن تشكروا يرضه لكم »
(الزمر ٧) .

ومن هذه الحرية إبداء الرأى فى نظام الحكم واختيار الولاة والنواب ،
قال — تعالى — : « وشاورهم فى الأمر » (آل عمران ١٥٩) .

ومن هذه الحرية أداء الشهادة . قال — تعالى — « ولا تكتموا الشهادة ؛
ومن يكتمها فإنه آثم قلبه . والله بما تعملون عليم » (البقرة ٢٨٣) .

ومن هذه الحرية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . قال — تعالى — :
« ولتكن منكم أمة ، يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون
عن المنكر ؛ وأولئك هم المفلحون » (آل عمران ١٠٤) .

ومن هذه الحرية النظر والتأمل فيما خلق الله من الأنفس
والناس والنعم والحيوان والأرض والسماء واليابسة والماء . . وسائر أنعمه
التى سخرها الله للإنسان ، وكرمه بها على سائر خلقه ، نظر عبرة ، وتأمل
مستدل على قدرة الله وعظمته . قال — سبحانه — : « وفى الأرض آيات
للموقنين * وفى أنفسكم أفلا تبصرون * وفى السماء رزقكم وما توعدون »
(الذاريات ٢٠ — ٢٢) . وقال : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت *
وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى
الأرض كيف سطحت » (الغاشية ١٧ — ٢٠) . وقال : « خلق
السموات والأرض بالحق — تعالى عما يشركون — * خلق الإنسان
من نطفة ، فإذا هو خصيم مبين * والأنعام خلقها ؛ لكم فيها دفء ،
ومنافع ، ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال ، حين تريحون ، وحين
تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ؛
إن ربكم لرءوف رحيم * والخيل والبغال والحمير ؛ لتركبوها ، وزينة .
ويخلق ما لا تعلمون * وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم
أجمعين * هو الذى أنزل من السماء ماء ؛ لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه

تسيمون * ينبت لكم به الزرع ، والزيتون ، والنخيل ، والأعناب ، ومن كل الثمرات ؛ إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون * وسخر لكم الليل ، والنهار ، والشمس ، والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ؛ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون * وماذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ؛ إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون * وهو الذى سخر البحر ؛ لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون * وألقى فى الأرض رواسى ؛ أن تميد بكم ؛ وأنهارا ، وسبلا ، لعلكم تهتدون * وعلامات ، وبالنجم هم يهتدون * أفمن يخلق كمن لايخلق ! . أفلا تذكرون * وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها. إن الله لغفور رحيم * والله يعلم ماتسرون ، وما تعلنون » (النحل ٣ - ١٩) . وقال - تعالى - : « والسماء بنيناها بأيد ، وإنا لموسعون * والأرض فرشناه ، فنعم الماهدون * ومن كل شىء خلقنا زوجين ؛ لعلكم تذكرون » (الذاريات ٤٧ - ٤٩) . وقال : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها ، وزيناها ، ومالها من فروج * والأرض مددناها ، وألقينا رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة ، وذكرى لكل عبد منيب * ونزلنا من السماء ماء مباركا ، فأنبتنا به جنات ، وحب الحصيد * والنخل باسقات ، لها طلع نضيد * رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا . كذلك الخروج » (ق ٦ - ١١) . وقال : « هو الذى جعل لكم الليل ؛ لتسكنوا فيه ، والنهار مبصراً . إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » (يونس ٦٧) . وقال: « قل : انظروا ماذا فى السموات والأرض ، وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون » (يونس ١٠١) وقال : « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شىء ؛ أن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ؛ فبأى حديث بعده يؤمنون » (الأعراف ١٨٥) . وغير هذه الآيات كثير وكثير .

٢ - ومن هذا المنطق يرشد الحديث المسلمين بعامة ، والقائمين على

شريعة الله منهم بخاصة ، أن يقوموا بالواجب المفروض عليهم ، من إحقاق الحق ، ونصرة الفضيلة ، وشد أزر الدين ، وإزهاق الباطل ، ومواجهة الرذيلة ، ومجابهة الأشرار العابثين بالدين ، وكف أيديهم عن الفساد ، فلا يدعوهم ينشرون الفحش ، ويقوضون بناء المجتمع ، ويخوضون فى الباطل ، وينغمسون فى حمأة العصيان ، ويستشرى ضلالهم ، ويفعلون ما يريدون ، لايبالون مايفعلون . ولقد علم القوامون على الشريعة أن من شأن مايفعله هؤلاء العصاة ويدبرونه أن يلحق الشر الجميع ، وأن يصيبهم جميعا الهلاك ، فالنكبة ـ إذا وقعت ـ حاصدة ، والطامة جارفة ، ولنا مثل فى بنى إسرائيل ؛ أغضوا عن المنكر ، فلعنهم الله ، وغضب عليهم ، وجعل منهم قردة وخنازير ؛ « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ؛ ذلك بما عصوا ، وكانوا يعتدون * كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون » (المائدة ٧٨ ـ ٧٩) .

وحينما يحوى المجتمع أمثال هؤلاء الأشرار ، ولا يقوم العقلاء الراشدون فيه بكبح جماحهم وخضد شوكتهم ، ووقف نزواتهم ، فلا يلم هؤلاء العقلاء الراشدون إلا أنفسهم ، لأنهم ـ بسكوتهم وهوانهم ـ عرضوا سلامة المجتمع للأخطار ، فأصابهم من هذه الأخطار نصيب .

٣ ـ والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر واجب وجوبا كفائياً على القادر عليه ، بصريح الآية الكريمة : « ولتكن منكم أمة ، يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » (آل عمران ١٠٤) . وهو واجب منوط بالفلاح الذى تشير إليه الآية ، وأمتنا المسلمة كانت خير أمة أخرجت للناس ، بقيامها بهذا الواجب ؛ قال ـ تعالى ـ : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ؛ تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » (آل عمران ١١٠) . ومن قام بهذا الواجب استحق النجاة ، ومن أعرض عنه أخذه

الله بعذاب بئيس ؛ قال - تعالى - : « فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس ، بما كانوا يفسقون » (الأعراف ١٦٥) . ومن يترك النهى عن المنكر يأثم ، مثلما يأثم الواقع فى المنكر ، قال - تعالى - : « لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ، لبئس ما كانوا يصنعون » (المائدة ٦٣) .

وهؤلاء البغاة والطغاة يجب على العقلاء الراشدين أن يصلحوهم ، ويصلحوا ذات بينهم ، ويعودوا بهم إلى الطاعة ، وينهوهم عن التمادى فى الشر ؛ فإن عادوا إلى الرشاد فبها ، وإلا فالعقلاء الراشدون مأمورون بقتالهم ، حتى يفيئوا إلى أمر الله ، قال - تعالى - : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل ، وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » (الحجرات ٩) .

٤ - وهناك فئة تؤثر السلامة والعافية ، فلا تعنى بأمر بمعروف ، أو نهى عن منكر ، وتتكئ على منطق يقول : ماذا يضرنا من بغى البغاة وعبث العابثين إذا كنا فى أنفسنا نقوم بحق الطاعة ، ويحتمون بقوله - تعالى - : « يأيها الذين آمنوا ؛ عليكم أنفسكم . لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » (المائدة ١٠٥) . وخير رد على هؤلاء هو قول « أبى بكر الصديق » - رضى الله عنه - فى إحدى خطبه : أيها الناس ؛ إنكم تقرءون هذه الآية ، وتؤولونها على خلاف تأويلها ، وتضعونها فى غير موضعها ، وإنى سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : ما من قوم عملوا بالمعاصى وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك الله أن يعمهم الله بعذاب من عنده » .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : لتأمرن بالمعروف ولتنهون

المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم ، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم » ، وذلك لأن هؤلاء الأخيار قد سقطت مهابتهم فى أعين الأشرار .
وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « إن الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامة حتى يرى المنكر بين أظهرهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه » .
وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « لا ينبغى لامرئ شهد مقاماً فيه حق إلا تكلم به ، فإنه لن يقدم أجله ، ولن يحرمه رزقاً هو له » .

واقرأ هذا الخبر ، لتتعرف درجة من يجاهد المنكر ومن يتقاعس عن ذلك . قال « ابن مسعود » ـ رضى الله عنه ـ : كان أهل قرية يعملون بالمعاصى ، وكان فيهم أربعة نفر ينكرون ما يعملون . فقام أحدهم فقال : إنكم تعملون كذا وكذا ، فجعل ينهاهم ، ويخبرهم بقبيح ما يصنعون ، فجعلوا يردون عنه ، ولا يرعوون عن أعمالهم ، فسبهم ، فسبوه ، وقاتلهم ، فغلبوه فاعتزل ، ثم قال : اللهم ؛ إنى قد نهيتهم فلم يطيعونى ، وسببتهم فسبونى ، وقاتلتهم فغلبونى ، ثم ذهب . ثم قام الآخر فنهاهم ، فلم يطيعوه ، فسبهم ، فسبوه ، فاعتزل ، ثم قال : اللهم ؛ إنى قد نهيتهم فلم يطيعونى ، وسببتهم فسبونى ، ولو قاتلتهم لغلبونى ، ثم ذهب . ثم قام الثالث ، فنهاهم فلم يطيعوه ، فاعتزل ، ثم قال : اللهم ؛ إنى نهيتهم فلم يطيعونى ، ولو سببتهم لسبونى ، ولو قاتلتهم لغلبونى ، ثم ذهب . ثم قام الرابع ، فقال : اللهم ؛ إنى لو نهيتهم لعصونى ، ولو سببتهم لسبونى . ولو قاتلتهم لغلبونى ، ثم ذهب . قال « ابن مسعود » ـ رضى الله عنه ـ : كان الرابع أدناهم منزلة . وقليل فيكم مثله ! ! .

وإن يتقاعس الصالحون عن جهاد العصاة يهلكم الله ، فإن جهاد العصاة وقتال المجتمع من إجرامهم أمانة فى أعناق الصالحين ، والتقاعس عن ذلك خيانة لهذه الأمانة ، مما يستوجب غضب الله ، سأل « ابن عباس »

ـ رضى الله عنهما ـ الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ : أنهلك القرية وفيها الصالحون ؟ . قال : نعم . قيل : بم ، يا رسول الله ؟ . قال : بتهاونهم ، وسكوتهم عن معاصى الله ـ تعالى . وعن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال : « أوحى الله ـ تبارك وتعالى ـ إلى ملك من الملائكة : أن اقلب مدينة كذا وكذا على أهلها . فقال : يا رب ؛ إن فيهم عبدك فلانا لم يعصك طرفة عين . قال : اقلبها عليه وعليهم ، فإن وجهه لم يتمعر فى ساعة قط ! » ، أى لم يتغير وجهه من الغيظ والغضب ، وهو يرى حرمات الله تنهتك ، إيثاراً للعافية والسلامة(١) .

٥ — ومن سنة الله — بعد أن استخلف البشر فى الأرض — أن ترك للمؤمنين أن يجاهدوا الكفار والمنافقين ، وللعقلاء الراشدين أن يدفعوا شرور الجهال الضالين ، حتى تستقيم الحياة الدنيا ، وتصلح الأرض ، ويصح العمران ، وتسلم العبادة ، وتتحقق الغاية التى من أجلها استخلف الله البشر فى أرضه . قال ـ تعالى ـ : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » (البقرة ٢٥١) . وقال ـ تعالى ـ : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز * الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر . ولله عاقبة الأمور » (الحج ٤٠ — ٤١) .

٦ — وفى عنق الحكام أمانة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بمقتضى ما خولوا من الحكم . وإن لهم من السلطة والسطوة ما يمكنهم من إرساء أسس العدالة ، وعلاج الانحراف ، والضرب على أيدى العابثين ؛ حماية للمجتمع ، وارتفاعاً به إلى درجة المجتمع المتماسك الذى ينفى خبثه ، المجتمع المتلاحم الذى يقى نفسه من الانهيار ، المجتمع الفاضل المنشود .

---

(١) إحياء علوم الدين : ١١٨٨/٧ وما بعدها .

الحديث الرابع والعشرون

عن ابن مسعود – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم : – « ما بعث الله – عز وجل – نبيا إلا وله حوارى ، فيمكث النبى بين أظهرهم ما شاء الله – تعالى – يعمل فيهم بكتاب الله وبأمره ، حتى إذا قبض الله نبيه مكث الحواريون يعملون بكتاب الله وبأمره وبسنة نبيهم ، فإذا انقرضوا كان من بعدهم قوم يركبون رءوس المنابر يقولون ما يعرفون ويعملون ما ينكرون ، فإذا رأيتم ذلك فحق على كل مؤمن جهادهم بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وليس وراء ذلك إسلام » .

(إحياء علوم الدين – كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وروى مسلم نحوه)

الحديث الخامس والعشرون

عن أبي موسى الأشعري — رضي الله عنه — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير؛ فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة».

(رواه مسلم)

اللغة: الجليس: المجالس، وهو من يجالسك وتجالسه. السوء (بالفتح): السيء، وهو الرديء الشرير الفاسد، (وبالضم): من الوصف بالمصدر مبالغة في ذمه. المسك (بالكسر): هذا الطيب المعروف، يذكر صاحب القاموس: أنه مقو للقلب نافع للخفقان طارد لرياح الأمعاء والسموم. نافخ الكير: الحداد، والكير (بالكسر) منفاخه الذي يضرم به النار ويشعلها. يحذيك: يعطيك، وزنا ومعنى، والعطية هي الحذوة والحذية (بالكسر فيهما) وهي الحذية (مثال عطية)، والفعل رباعي، وثلاثيه واوي من باب نصر. تبتاع منه: تشتري منه.

النحو: إما: مكسورة مشددة، وهي تساوي في معناها معنى (أو)؛ فتارة تكون بعد الخبر للشك مثل: نجح إما خالد وإما سعيد — إذا لم تعلم الناجح منهما، وللإبهام مثل قوله تعالى: «وآخرون مرجون لأمر الله؛ إما يعذبهم وإما يتوب عليهم». وبعد الطلب للتخيير مثل: تخصص إما في الطب وإما في الهندسة. ومنه قوله تعالى: «قالوا: ياذا القرنين؟ إما أن تعذب،

وإما أن تتخذ فيهم حسنى » ، وقوله : « قالوا : ياموسى ، إما أن تلقى ، وإما أن نكون أول من ألقى » . وللاباحة مثل : اقرأ إما حديثا وإما تفسيرا . وقد تأتى للتفصيل مثل قوله تعالى : « إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا » .

والفرق بين (إما) و (أو) أن الأولى يبنى الكلام معها أول الأمر على ماجىء بها لأجله ، من شك أو إبهام أو تخيير أو إباحة أو تفصيل ، ولذلك وجب تكرارها : واحدة فى أول الكلام تنبىء بالغرض وأخرى بعدها للمعادلة . أما (أو) فإن الكلام يفتتح معها على الجزم ، ثم يطرأ الشك أو غيره فيفاد بها ، ولهذا لم تتكرر ، مع ملاحظة أنه لا ينظر إلى كون المتكلم جازما فى نفسه أو شاكا فتلك مسألة أخرى .

ولا خلاف بين النحاة فى أن (إما الاولى) معترضة فى أثناء الجملة فليست عاطفة ، وأحيانا تعترض بين العامل والمعمول مثل : مثل سافر إماعصام وإماهشام ، أو بين أحد المعمولين والمعمول الآخر مثل أكرمت إما محمدا وإما عليا ، أو بين المبدل منه وبدله مثل : اشترى التاجر السلعة إما ثلثها وإما نصفها ، ومنه قوله تعالى : « حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة » ، فالعذاب بدل من (ما يوعدون) . هذا بالنسبة لإما الأولى ، أما الثانية فهى عاطفة عند الجمهور ، ومنعه بعضهم بدعوى مصاحبتها الواو .

وقد يستغنى عن لفظ إما الاولى ، كقول « ذى الرمة » :

تلم بدار قد تقادم عهدها ∴ وإما بأموات ألم خيالها

أى : تلم إما بدار وإما بأموات .

وقد يستغنى عن إما الثانية بذكر مايغنى عنها ، كقول « المثقب العبدى » :

فإما أن تكون أخى بصدق ∴ فأعرف منك غثى من سمينى

وإلا فاطرحنى ، واتخذنى ∴ عدوا ؛ أتقيك ، وتتقينى

أى إما أن تؤاخينى وإما أن تعادينى .

البلاغة : فى مفتتح الحديث أسلوب قصر ، طريقه (إنما) ، وهو قصر إضافى ، وقصر موصوف ـ هو المشبه ـ على صفة ـ المشبه به .

وفى الحديث تشبيهان : تشبيه الجليس الصالح بحامل المسك بجامع النفع فى كل ، فالمشبه ـ الجليس الصالح ـ نافع بما ينصح ويرشد (نظيره الحذوة والعطية من حامل المسك) ، وبما يفيد من علم ومعرفة (نظيره الابتياع من حامل المسك) وبما يعطى من المثل والقدوة فيحمل على محاكاته والاقتداء به ويكتسب من مجالسته السمعة الطيبة وثقة الناس فيه (نظيره شم الريح الطيبة من حامل المسك) . وتشبيه الجليس السوء بنافخ الكير بجامع المضرة فى كل ، فالمشبه ـ الجليس السوء ـ ضار بما يحض على الأذى والمكروه (نظيره احتراق الثياب من الشرر المتطاير من نافخ الحداد) ، وبما يعطى من المثل السيء والخلق الردىء فيكون التأثر به ومحاكاته ، والسمعة السيئة من وراء مجالسته ، وفقدان ثقة الناس (نظيره شم الريح الخبيثة من دكان الحداد) .

وفى الحديث مقابلات بين أوصاف حامل المسك الذى شبه به الجليس الصالح ، وأوصاف الحداد الذى شبه به الجليس السوء .

وفى (نافخ الكير) كناية عن موصوف .

وفى (يحذيك) و (تبتاع منه) إيجاز بالحذف ، فالمفعول محذوف اختصارا ، أو لوضع الفعل موضع اللازم ، كأنه قيل يحدث منه حذو ، أو يحصل منك ابتياع منه .

الفكرة : يجب على المسلم أن يحسن اختيار أصدقائه وأصحابه من الصلحاء الأخيار ذوى التقوى والخلق الفاضل والسمعة الحسنة ،

ويجب عليه أن يجتنب صداقة الأشرار الفاسدين المفسدين ذوى السيرة العفنة .

البيان :

١ — الإنسان اجتماعى بطبعه ، فهو يميل إلى مخالطة الناس ومعاشرتهم ، واتخاذ الأصدقاء والأصحاب ؛ ليؤنسوه ، وليقطع بهم وحشته وانفراده ، وليفيد منهم ويفيدوه ، والمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه . وكانا يعلم — بالنظر وبالتجربة — أن الصديق يتشكل فى سلوكه وطبعه بسلوك أصدقائه وطباعهم ، (وكل قرين بالمقارن يقتدى) ؛ لأنه يألفهم ويألفونه ، والألفة لابد أن تثمر موافقة فى المشارب والمنازع ، وتفاهما حول المبادئ ، وتقاربا فى وجهات النظر إلى الحياة والمجتمع . ومن هنا جاء حرص الإسلام على دعوة المسلم إلى أن يعاشر الأخيار ، ويؤثرهم ، وينبذ الأشرار ويطرحهم ، وأن يتخذ من الأولين أصدقاءه ، ويصطنع منهم رفاقه ، ويجتنب الآخرين ، ولا يتخذ بطانته منهم ، وأن يقبل على الأولين بمودته ، ويفر من الآخرين فرار السليم من الأجرب .

وهذا يقتضيك — أيها المسلم — أن تتعرف على أخلاق من تفكر فى اتخاذهم أصدقاء ، وأن تشيم سلوكهم ، ونظام معاملاتهم : كيف يعامل الواحد منهم أباه وأمه وإخوته وعشيرته الأدنين ، فإن كان صالحا مع هؤلاء رجوت من مثله الصلاح . وإياك أن تغتر بالمظاهر وتخدع بالمرائى .

أعيذها نظرات منك صادقة .. أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

ثم اعرف بعد ذلك(١) : سيرته مع أصدقائه قبلك ، وتتبع أمره فى شكر من يجب عليه شكره أو كفره النعمة ، فآخ الشاكر ، واحذر أن تبتلى بمن يكفر النعمة ، وانظر أيسرع إلى أداء الحقوق أم يتقاعس عنه ، فإن من يؤدى الحقوق حسن الخلق والمتقاعس عن أدائها سيئ الخلق .

---

(١) تهذيب الأخلاق والأعراق لابن مسكويه — ص ١٤١ — طبعة مصطفى البابى الحلبى وأخويه — ١٣١٨ هـ .

ثم انظر حرصه على جمع المال وكنزه ، فإن الحريص الكانز يخشى أن يميل إلى الخصومة والعداء مؤثراً الذهب والفضة . وانظر ميله إلى التعالى والتيه ؛ فإن من كان هذا طبعه استهان بأصدقائه ، ولم ينصف فى المودة .

وعلى الجملة : انشد فى صديقك ما تطمئن إليه نفسك وعقلك ، حتى يوافقك وتوافقه ، ويألفك وتألفه . ويجب أن تغض عن المعايب الهينة التى لا يسلم من مثلها البشر ، وانظر ما فى نفسك من عيب ، لتحتمل مثله من غيرك :

فإنك لن تلقى أخاك مهذباً وأى امرىء ينجو من العيب صاحبه !

٢ — والإسلام يدعو دعوة صريحة إلى معاشرة الأخيار ومصاحبة الأتقياء ، فى القرآن الكريم يرشد الله رسوله إلى أن يصبر نفسه مع العباد الصالحين المخلصين ، ويدعوه أن يلزمهم ، ولا يصرف عينيه عنهم ، إذ يقول له : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم ، تريد زينة الحياة الدنيا » (الكهف ٢٨) ، ويقول — سبحانه — : « واتبع سبيل من أناب إلى » (لقمان ١٥) . وفى الحديث الشريف — غير ما مر بنا — قول الرسول — عليه الصلاة والسلام — : « من أراد الله به خيراً رزقه خليلا صالحاً ، إن نسى ذكره ، وإن ذكر أعانه » ، وقوله : « مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى . وما التقى مؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيراً » ، وقوله : سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله . . . [ومنهم] . . . ورجلان تحابا فى الله ، اجتمعا عليه ، وتفرقا عليه » ، وقوله — عليه الصلاة والسلام — : « إن أحبكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون » ، وقوله : « إن أقربكم منى مجلساً أحاسنكم أخلاقاً ، الموطئون أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون » .

ويدعو الإسلام دعوة صريحة إلى مجانبة الأشرار ، والإعراض عن صحبتهم ، ولو كانوا من ذوى الوجاهة ، قال الله — تعالى — لرسوله بعد أن أرشده إلى أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ولا تعدو عيناه عنهم : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » (الكهف ٢٨) فيرشده إلى الإعراض عن كل غافل من ذوى الأهواء والباطل ومن كان أمره بعيدا عن الحق . وقال — تعالى —: « فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » (طه ١٦) ، وقال: « فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا » (النجم ٢٩) . وقال منكرا أن يصادق المؤمنون من يغاضبون الله ورسوله ولو كانوا من ذوى قرابتهم وعشيرتهم : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم» (المجادلة ٢٢) . ويروى عن الرسول — صلى الله عليه وسلم — قوله : المرء على دين خليله . ولا خير فى صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له » ، وقوله : « المؤمن إلف مألوف . ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » .

٣ — والحديث الشريف الذى معنا فيه دعوة إلى الأمرين ، دعوة إلى الإقبال على صحبة الأخيار ، ودعوة إلى الإعراض عن صحبة الأشرار . فالأخيار ذوو فوائد وعوائد ، وبمخالطتهم تتم الهداية بهم ، أو ينال المخالط قسطا من حسن معاشرتهم ، وحظا من كريم آدابهم ، أو يحصل السرور من رؤية نعمة الله عليهم ؛ من الصلاح والتقوى والرأى الحسن والقول الحسن والفعل الحسن . أما الأشرار فذوو مفاسد ومباذل ، وبمخالطتهم يلحق المخالط الأذى من مفاسدهم ، وتحمله صحبتهم على مشاركتهم فى مباذلهم ، ومقارفتها ، ومحاكاتهم فى الآثام ، وتقليدهم فى المنكرات ، وإلا كفاه أن يتأذى بشهود تلك المفاسد والمباذل ، وحضور مجالسها .

وأنت ترى أنه — فى كلا الأمرين — تنتقل الأخلاق بالعدوى ؛

لأنه إذا توثقت عرا الصداقة أصبح الصديق على مثل دين صديقه وهواه . وليس الخوف من عدوى الصلاح ؛ فإنه خير كله . وإنما الخوف من عدوى الفساد ، فإنه إذا استشرى تعاصى عن الإصلاح .

والمثل الذى ضربه الرسول — عليه الصلاة والسلام — لكلا الفريقين يعطينا صورة حسية لأمر الصحبة الخيرة وأمر الصحبة الرديئة ؛ فالناس كل الناس يعلمون ما يسرهم من بائع المسك ، فهم يقصدونه ليبتاعوا منه ، أو لينفحهم من عطره ، أو ليستروحوا لديه نسمات ريحه الطيبة . والناس كل الناس يعلمون ما يضرهم من الحداد إذا انغمسوا فى مخالطته ، فهم يحترقون — أو تحترق ثيابهم — من شرر ناره المتطاير ، أو يشمون لديه رائحة الحديد الصدئ وخبثه عندما يحترق .

ولا يقصد الحديث إلى إعلاء شأن العطار وخفض شأن الحداد فى ذاتيهما ، فإنما هما سواء فى حساب الإنسانية . ولا يقصد الحديث إلى التنويه بقدر العطارة كمهنة والإقلال من حرفة الحدادة فى ذاتيهما ، فإنهما سواء فى اعتبارهما أداة لكسب العيش . والعبرة لدى المنصف بصلاح كل فى نفسه ، وبتقواه ، وبحيطته فى طلب الكسب الحلال ، وبأمانته لدى البيع والشراء وسائر المعاملات ، وبإخلاصه فى عمله وقوله .

والمثل الذى ساقه الحديث قصد منه — كما قلنا — وضع الصداقة فى صورة محسوسة ، فمن أراد الله به خيراً جنح إلى صداقة الأخيار الأبرار ، وأما من مال إلى صحبة الأشرار الفجار فلا يلومن إلا نفسه ، فقد انحاز إلى ركن متداع منهار ، للشيطان فيه دروب ومسالك ، وهذا باب إلى الشر عظيم .

وللحديث رواية أخرى . يقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — : «مثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك، إن لم يصبك منه شىء أصابك من ريحه.

ومثل جليس السوء كمثل صاحب الكير ، إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه » — سنن أبى داود — والفكرة فى كلا الحديثين واحدة ، والصورة متحدة .

٤ — وللصحبة فوائد[١] . منها فوائد دنيوية كالانتفاع بجاه الصديق أو ماله ، أو الاستئناس بمشاهدته أو جواره . ومنها فوائد دينية ، كالاستفادة من علمه أو عمله ، أو الاستعانة به فى المهمات والملمات ، أو انتظار شفاعته فى الآخرة ، فقد روى عن بعض السلف قوله : استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة ، وقوله : إذا غفر الله للعبد شفع فى إخوانه .

وللصحبة أغراض ودواع : منها حب الإنسان لذاته ، أى الالتذاذ برؤيته ومعرفته ومشاهدة أخلاقه ، وينشأ هذا الحب من أمر يخفى علينا سببه ، إلا أن الواقع والتجربة يشهدان له ، وقد عبر الرسول — صلى الله عليه وسلم — عن هذا فى قوله : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

ومنها حب الإنسان ليكون وسيلة إلى محبوب آخر ، فالوسيلة إلى المحبوب محبوبة ، كحب الطالب أستاذه لأجل العلم ، فالأستاذ وسيلة إلى العلم ، فالأستاذ محبوب لأنه وسيلة إلى العلم المحبوب . وفى مثل هذا يقول مجنون بنى عامر :

أمر على الديار ديار ليلى   أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبى   ولكن حب من سكن الديارا

ومنها حب الإنسان لله ، فإن حب الله إذا قوى أثمر حب كل من يقوم

(١) إحياء علوم الدين .. كتاب آداب الألفة : ١٥/٩٢٤ — ٩٨٥ .

بحق عبادته ، وأثمر حب كل من فيه صفة مرضية عند الله ، من خلق حسن ، أو تأدب بآداب الشرع . ولا يقصر هذا الحب على الحظ ينال من المحبوب في الحال أو المآل ، فإنه يصدق على حب الموتى من العلماء والعُبّاد والصحابة والتابعين والصديقين والشهداء والصالحين والأنبياء والرسل ، ويمتد إليهم جميعا ، وحبهم مكنون في قلب كل مسلم متدين ، ويتبين ذلك من فرحته عند الثناء عليهم وذكر محاسنهم ومحامدهم ، وغضبه لدى الطعن فيهم .

وينبغي أن تجتمع فيمن تؤثر صحبته عدة خصال : أن يكون عاقلا ، حسن الخلق ، متدينا ، ذا قناعة . فإنه لاخير في صحبة الأحمق ، فإنه قد يضرك من حيث يظن أنه ينفعك .

فلا تصحب أخا الجهل وإياك ، وإياه ! !
فكم من جاهل أردى حليما حين آخاه

ولا خير في صحبة سيء الخلق ، لأنه يطيع هواه ، ويعجز عن قهر صفاته ، وتقويم ما اعوج منها .

ولا خير في صحبة الفاسق ، لأن من لا يخاف الله لا تؤمن غائلته ، ولا تسلم صداقته .

ولا خير في صحبة الحريص على الدنيا ، فإنها تشغله عن الآخرة ، وتجعل علاقته بك قائمة على المنفعة المادية ، فإن أفدته منها أقبل عليك ، وإن لم تفده منها انقلب عليك ، ولا يستحي أن يضرك .

٥ — والصحبة حقوق(١) :

(١) حق في المال ، بأن تواسي صاحبك به في السراء والضراء . وهذه المواساة مراتب ، أولاها أن تقوم بحاجته من فضلة مالك وتعطيه ابتداء . وأوسطها أن ترضى بأن يشاركك في هذا المال كما فعل الأنصار مع المهاجرين ، وأعلاها أن تؤثره على نفسك وتقدم حاجته على حاجتك .

---

(١) المرجع السابق .

(ب) حق فى النفس ، بأن تعينه بنفسك على قضاء الحاجات . ومراتبها كراتب المال . وتقتضى جميعها البشاشة لصديقك وإظهار الفرح به .

(ح) حق فى اللسان صامتا ، بأن يسكت لسانك عن ذكر عيوبه فى حضرته وفى غيبته ، وأن تكف عن مجادلته وعماراته ، وأن تكتم أسراره التى ائتمنك عليها فلا تبثها إلى غيره البتة ولو كانوا من خاصته وخلصائه ، و « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يشاه » .

(د) حق فى اللسان ناطقا ، بأن تتودد إليه ، وتتفقد أحواله التى يجب أن يتفقد فيها ، كالسؤال عن عارض إن عرض ، وإظهار شغل القلب به ، واستبطاء العافية عنه . ومن ذلك أن تثنى عليه بما تعرف من محاسن أحواله ، وتثنى على عقله وخلقه وهيئته وصنعته وقوله وفعله وأولاده وأهله . ومن ذلك أن تشكره على صنيعه فى حقك ، بل على نيته وإن لم يتم مانوى . ومن ذلك تعليمه وإرشاده فإن كنت غنيا بالعلم فواسه من فضل علمك ، وأرشده إلى ما ينفعه فى دينه ودنياه ، فإن علمته وأرشدته ولم يعمل بمقتضاه فعليك أن تنصحه . وتذكر له آفات ما يفعل وفوائد ما يدع ، وأن تخوفه بما يكرهه فى الدنيا والآخرة ، ليزدجر عنه ، وتنبهه على عيوبه ، وتقبح القبيح فى عينه ، وتحسن الحسن . ولكن ينبغى أن يكون ذلك فى سر لا يطلع عليه أحد ، لأن ما كان من مثل ذلك على الملأ عد توبيخا وتشهيرا .

(هـ) أن تعفو عن زلاته وهفواته ، وعن تقصيره فى الأخوة والصحبة ، وتلتمس له عذرا .

إذا مابدت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالا لزلته عذرا

حكوا[1] أن زوجة طلحة بن عبد الرحمن بن عوف الفهرى ، قالت لزوجها يوما — وكان أجود قريش فى زمانه — ما رأيت قوما ألأم منـ

(١) أدب الدنيا والدين ص ٦٩ .

قومك ! . قال : مه . ولم ذاك ؟ قالت : أراهم إذا أيسرت لزموك ، وإذا أعسرت تركوك . قال : هذا — والله — من كرمهم ؛ يأتوننا فى حال القوة بنا عليهم ، ويتركوننا فى حال الضعف بنا عنهم . فانظر كيف تأول هذا التأويل بكرمه ، حتى جعل قبيح فعلهم حسنا ، وظاهر غدرهم وفاء .

فإن نصحته فلم ينتصح وبقى مصرا على نكره وعلى مفارقة المعصية فلك أن تقاطعه وتنابذه ، فربما كان هجره أدعى إلى أن يراجع نفسه ، ويستقبل من الخير ما استدبر .

(و) الدعاء له فى حياته وبعد مماته بكل ما يحبه لنفسه ولأهله . ففى الأثر : « يستجاب للرجل فى أخيه مالا يستجاب له فى نفسه » .

(ز) الوفاء والإخلاص له ، وإدامتهما طيلة حياته ، وبعد الموت لأولاده وأهله وأصدقائه . ولنا فى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أسوة حسنة ، كان يستقبل بعد وفاة زوجه خديجة — رضى الله عنها — عجوزا ، ويكرمها ، وسئل فيها ، فقال : « إنها كانت تأتينا أيام خديجة » . وإن كرم العهد من الدين » ومن الوفاء ألا تتغير حالك فى التواضع مع صديقك إن ارتفع شأنك وعظم جاهك :

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم فى المنزل الخشن

(ح) التخفيف عن صديقك ، وألا تكلفه ما يشق عليه ؛ فمن اقتضى من أصدقائه مالا يقتضونه فقد ظلمهم ، ومن اقتضى منهم مثل ما يقتضونه فقد أتعبهم ، ومن لم يقتض فهو المتفضل عليهم .

وجمع « علقمة العطاردى » حقوق الصحبة — حين حضرته الوفاة — فأوصى ابنه ، فقال له : إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك ، وإن صحبته زانك ، وإن قعدت بك مؤونة مانك . اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها ، وإن رأى منك حسنة عدها ، وإن رأى منك سيئة سدها . اصحب من إذا سألته أعطاك ، وإن سكت ابتداك ، وإن نزلت بك نازلة واساك . اصحب من إذا قلت صدق قولك ، وإن حاولتما أمرا أمرك ، وإن تنازعتما آثرك .

الحديث السادس والعشرون

عن عبد الله بن عمر — رضي الله عنهما — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « المسلم أخو المسلم ؛ لا يظلمه[1] ، ولا يسلمه[2] . ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته[3] . ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة[4] . ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة[5] » .

رواه البخاري

(١) لا يظلمه : أي لا ينقصه حقا من حقوقه ، ولا يعتدى على ذاته أو عرضه أو ماله ؛ فان الظلم حرام .

(٢) لا يسلمه : أي لا يخذله ولا يتخلى عنه ولا يتركه لظالم أو عدو . بل عليه أن ينصره ويقف إلى جواره .

(٣) أي من أعان أخاه عند حاجة هذا الأخ إليه أعانه الله ويسر له أموره .

(٤) أي من كشف عن أخيه المسلم كربة أو شدة من كرب الدنيا وشدائدها كان له ثوابها يلقاه يوم القيامة .

(٥) أي من رأى من أخيه المسلم ما يكره كشفه فستر عليه وأرشده إلى سوية أمره ليرعوى ويستقيم ستر الله ذنوبه يوم القيامة .

الحديث السابع والعشرون

عن أبي هريرة — رضي الله عنه — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « إذا توضأ العبد المسلم — أو المؤمن — فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء — أو مع آخر قطر الماء — فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء — أو مع آخر قطر الماء — فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء — أو مع آخر قطر الماء — ، حتى يخرج نقيا من الذنوب » .

(رواه مسلم)

اللغة : توضأ : فعل الوضوء ، وأصل الوضوء من الوضاءة وهي النظافة والحسن ، وسمي الوضوء وضوءاً لأنه ينظف المتوضئ ويحسنه . المسلم : اسم فاعل من الإسلام ، وهو لغة الاستسلام والانقياد ، وقد أصبح علما على ما يظهره العبد من الطاعة والانقياد لله بالنطق بالشهادتين وأداء العبادات المفروضة عليه ، وهي الصلوات المكتوبة والزكاة وصوم رمضان والحج عند الاستطاعة . المؤمن : اسم فاعل من الإيمان ، وهو لغة التصديق والثقة ، وقد أصبح علما على ما يبطنه العبد من الاعتقاد في ربوبية الله وحده والتصديق بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره . وفي رأينا أن الإسلام والإيمان متلازمان ؛ فهذا الذي يظهره العبد من الطاعة لا غناء منه إذا لم يبعثه يقين بأنه يجب أن يفعله ، وهذا الذي يبطنه العبد من العقيدة والتصديق لا جدوى منه إذا لم يثمر الطاعة والعمل . كل خطيئة : كل ذنب ، ويرشح هذا ذكر (الذنوب) في آخر الحديث . والخطيئة فعيلة من الخطأ ، وهما بمعنى ، وقيل : الخطيئة الذنب

الذى يرتكب عمدا ، والخطأ الذنب غير المتعمد . بطشتها يداه : أى تناولته يداه ، بطش به (من بابى جلس وقعد) أخذه بالعنف والسطوة ، قال تعالى فى حق « عاد » قوم « هود » : « وإذا بطشتم بطشتم جبارين » ، وأطلق البطش على الأخذ الشديد فى كل شىء . نقيا : صفة مشبهة من النقاء ، ولامه واو مثل (رضى) تصريفاً ووزناً ، والنقاء النظافة .

النحو : كل خطيئة : فى الجمل الثلاث فاعل (خرج) ، وقد جىء بالفعل مذكراً فى الموضعين الأولين لاعتبار لفظ كل ، وملحقا به علامة التأنيث فى الموضع الثالث لاكتساب كل التأنيث من الإضافة إلى المؤنث . والجمل الواقعة بعد (خطيئة) نعوت ، والجمل بعد النكرات نعوت وبعد المعارف أحوال . كان فى عبارة (كل خطيئة كان بطشتها) زائدة للتأكيد واقعة بين المنعوت ونعته ، ويحتمل أن تكون عاملة واسمها ضمير يعود على المسلم الغاسل وجملة بطشتها خبرها . حتى يخرج : تحتمل الغائية فالفعل بعدها منصوب ، وتحتمل الابتدائية فالفعل بعدها مرفوع ، والمعنى على الأول : إلى أن يخرج نقيا من الذنوب ، وعلى الثانى : فإنه يخرج نقيا من الذنوب .

البلاغة : فى اختيار (إذا) دلالة على أن جزاء فعلها — وهو خروج الخطيئة مع الماء — مؤكد وموثوق بوقوعه . وفى عبارة (خرج كل خطيئة مع الماء) استعارة . فالخطيئة مشبهة بجسم يقع له الخروج كالشعرة تخرج من العجين ، ويقتضى خروج الخطيئة غفرانها ؛ لأنها تفارق صاحبها فلا يعود مرهقا بوزرها بطشتها يداه ومشتها رجلاه : يراد بالبطش وبالمشى الاكتساب على سبيل الكناية ، أو يكون فى إيقاع البطش من اليد والمشى من الرجل على ضمير الخطيئة اتساع ، فالفعلان لازمان ، يتعدى أولهما بالباء ، ويتعدى الثانى بإلى عند إرادة المرور وبالباء عند إرادة الاهتداء كقوله تعالى : « نورا تمشون به » ، أى تهتدون به . والغرض

من ذلك الإشعار بما كان من السعى الحثيث إلى الخطيئة ، كان المذنب أسلم عقله ليديه : أو رجليه ، فصنعت كلتاهما ماتشاء ودبرته دون وعى منه .

الفكرة : دعوة المسلم إلى الإقبال على طاعة الله بإخلاص ورغبة فى الطاعة ؛ فهذا الذى يسبغ وضوءه ويكمله ويوفيه حقه ويتخذ منه مظهراً لطهارة باطنه وفاتحة للعبادة إنما يتجه به إلى الله تائباً منيبا ؛ وكلما تجدد الوضوء تجدد الطهر وتجددت الإنابة من جانب العبد وتجدد الرضا وتجددت المغفرة من جانب الرب ؛ فماء الوضوء يغسل الأوزار كما يغسل الأدران ، وينظف المسلم من الآثام كما ينظفه من الأوساخ . وعلى الجملة : كل فعل يصدر عن المسلم له فيه جدوى وغناء وفائدة .

البيـان :

١ — النظافة من الإيمان .

والنظافة تزيل أوساخ الجسم وأدرانه ، وتجدد فيه الحيوية والنشاط ، وتقيه كثيراً من الأمراض ، وتحميه من كثير من العلل ، وتظهر صاحبها فى المظهر الحسن والهيئة الجميلة والمقبولة ، فيتلقاه الناس بقبول حسن ، ولا ينفروا من مجالسته وصحبته .

وقد جعل الإسلام النظافة وسيلة لأداء العبادات ، ومنها ما هو شرط فى صحة الصلاة كالوضوء أو الغسل ، قال — تعالى — : « يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ، وإن كنتم جنباً فاطهروا » (المائدة ٦) ، وقال : « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون ، ولا جنباً إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا » (النساء ٤٣) ، وألزم الله المسلم — عند ما يعدم الماء أو يمنع من استعماله مانع — أن يتيمم صعيداً طيبا ليكون رمزاً لرغبته فى تطهير نفسه ؛ قال — تعالى — : « وإن كنتم مرضى أو على

سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » (النساء ٤٣) ، وفى آية المائدة : « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه . ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ؛ ليطهركم ، وليتم نعمته عليكم ، لعلكم تشكرون » (المائدة ٦) . فالغاية التى يبتغيها المسلم من وضوئه ومن غسله أو من تيممه إنما هى الطهارة التى يشتمل بها وتمام نعمة الله عليه ، ومن هنا وجب عليه أن يشكر الله ويحمده ، بما أرشده إلى النظافة بالماء ، وبما يسر عليه وخفف عنه فرخص له فى التيمم عندما لا يقدر على الماء واستعماله ، فيكون التيمم ـ كما قلنا ـ رمزاً للطهارة عند ما يعوز الماء ، فكلا الأمرين : الوضوء أو الغسل وبديلهما ـ جعل مظهراً لتطهير الباطن من الذنوب والأوزار .

فتطهير الظواهر وسيلة إلى تطهير السرائر ، وليس يقبل أن يكون المظهر حسناً والباطن خرباً ، وإذا كان المظهر موضع نظر الخلق فإن الباطن موضع نظر الخالق . ويقول « الغزالى »(١) :

إن من يقتصر على طهارة الظاهر كمن أراد أن يدعو وجيها إلى بيته فترك البيت مشحوناً بالقاذورات واشتغل بتجصيص بابه من الخارج . ويقول فى موضع آخر ، عند شرح معنى الحديث الشريف « الطهور شطر الإيمان »(٢) : للطهارة أربع مراتب :

الأولى تطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث والفضلات ، والثانية تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام ، والثالثة تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة والرابعة تطهير السر عما سوى الله . ولن

---

(١) إحياء علوم الدين : ٢/٢٣٩ .
(٢) فارجع ص ٢٢٣ .

ينال العبد المرتبة العالية إلا أن يجاوز المرتبة السافلة ، فهو لا يصل إلى طهارة سره عن الصفات المذمومة وعمارته بالصفات المحمودة ما لم يفرغ من طهارة قلبه عن الخلق المذموم وعمارته بالخلق المحمود ، وهو لا يصل إلى هذا ما لم يفرغ من طهارة جوارحه عن المناهى وعمارتها بالطاعات . ونقول : وهو لا يصل إلى هـذا ما لم يفرغ من طهارة ظاهرة ، عن الأخباث ، والأحداث . وكلما عز المطلوب وشرف : صعب مسلكه وطال طريقه ، فلا نظن الأمر مجرد غسل ووضوء ونظافة ، فإنما المرتبة الأخيرة من الطهارة كالقشرة الظاهرة بالإضافة إلى لب الطهارة ، فإذا وافق الظاهر الباطن فهو النقاء من جميع أطرافه ، وإن لم يوافقه ربّ الوسواس المتنظف ، وصار يقضى معظم وقته فى تزيين ظاهره ، فعل الماشطة بعروسه ، ولقد كان أولى له أن يغسل باطنه من هذا الوسواس وما يجره إليه من الجهل والاضطراب والعجب والكبر والرياء .

٢ — لقد صح - إذن - أن نتخذ من نظافة الظاهر وسيلة وأداة إلى نظافة الباطن . والحديث الشريف يجعل خطايا المسلم المتوضئ تخرج منه مع قطارات الماء ، لأنه يتوجه إلى الله فى طهره ، فهو يتوب عدة مرات ؛ يغسل وجهه ، فيذكر كم أذنبت عيناه ، ويسترجع آثام نظراته ، فيتوب عن ذلك عازما ألا تأثم عيناه ، فتمحو توبته خطيئة عينيه مع الماء الذى يغسل ظاهرهما . ويغسل يديه ، فيتذكر أنه بطش بهما ، واستعملهما فى الظلم والعسف والإيذاء ، فيتوب عن ذلك عازماً ألا تذنب يداه ، فتمحو توبته خطيئة يديه مع الماء الذى يقطر منهما . ويغسل رجليه ، فيذكر أنه سعى بهما إلى الحرام ، وحركهما إلى الجريمة ، فيتوب عن ذلك عازما ألا تخطئ رجلاه ، فتمحو توبته خطيئة رجليه مع الماء الذى ينفصم عنهما .

٣ — وهذه الآثام والذنوب والخطايا أمور اعتبارية ، مردها إلى يقظة ضمير المسلم ، وقوة إيمانه ويقينه ، فقد يرتكب الهفوة الواحدة أكثر من مسلم واحد ، فيراها أحدهم جريمة شنيعة نكراء ، تسمه بالخسة والدناءة ، وتبعده عن رحمة الله ، وتقربه من عذابه ، ولا يتوقع أن تمحوها عبادة الدهر كله . ويراها ثان خطيئة معتادة ، ارتكبها كما يرتكبها الناس كل يوم ، فتقوى نفسه على معاودتها ، ولا يرى فى ممارستها أمراً إدا . ويراها ثالث مخالفة اضطره المجتمع إلى ارتكابها ، فهو يبرىء نفسه من إثمها ، ويزيح على المجتمع أو بعض أفراده وزرها ... إلخ . وحسنات الأبرار سيئات المقربين .

٤ — وقيل[1] : إن الخطايا التى يغسلها الوضوء هى الصغائر دون الكبائر ؛ بدليل ماروى عن « عثمان بن عفان » — رضى الله عنه — أنه دعا بطهور ، وتوضأ ، ثم قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ؛ مالم يؤت كبيرة ، وذلك الدهر كله » ؛ فهذه الذنوب — غير الكبائر — تغفرها الصلاة المكتوبة إذا أحسن المسلم وضوءها وخشوعها وركوعها .

وهنا بحث حول ما يكفر الخطايا من هذه القربات ، فقد روى الصحابة فى هذا الباب عدة أحاديث ، منها قوله — صلى الله عليه وسلم — : « من توضأ هكذا غفر له ما تقدم من ذنبه ، وكانت صلاته ومشيه إلى المسجد نافلة » ، وقوله : « من توضأ نحو وضوئى هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه » ، وقوله : « الصلوات الخمس كفارة لما بينهن » ، وقوله : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ،

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى : ٣/١١٧ وما بعدها .

ورمضان إلى رمضان ، مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » ، وقوله : « صوم يوم عرفة كفارة سنتين ، ويوم عاشوراء كفارة سنة » ، وقوله : « إذا قال الإمام : (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فقولوا : (آمين) ، فمن وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » . وقد يقال : إذا كفر الوضوء الذنوب فماذا تكفر الصلاة ؟ ، وإذا كفرت الصلاة فماذا تكفر الجمعات ورمضان . . . الخ ؟ .

والجواب ما أجابه العلماء : أن كل واحد من هذه المذكورات صالح للتكفير ، فإن وجد ما يكفره من الصغائر كفره ، وإن لم يصادف خطيئة صغيرة ولا كبيرة كتبت به حسنات ورفعت به درجات ، وإن صادف كبيرة ولم يصادف صغيرة رجونا أن يخفف من الكبائر . والله أعلم . وأنت تعلم أن مذهب أهل السنة أن الكبائر إنما تكفرها التوبة النصوح أو رحمة الله تعالى .

٥ — إن المسلم يتوجه — عقيب الوضوء — إلى الله ، فينطق بالشهادتين . قال رسولنا — صلى الله عليه وسلم — : « ما منكم من أحد يتوضأ ، فيبلغ — أو فيسبغ — الوضوء ، ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبد الله ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء » . وقد يدعو المسلم عقب وضوئه بالدعاء المأثور — وهو دعاء مرفوعة أجزاؤه جزءا جزءا للنبي من روايات مختلفة — : (أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . سبحانك اللهم وبحمدك . لا إله إلا أنت . عملت سوءا وظلمت نفسي . أستغفرك اللهم وأتوب إليك ؛ فاغفر لي ، وتب علي ، إنك أنت التواب الرحيم . اللهم ؛ اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين ، واجعلني من عبادك الصالحين ، واجعلني عبداً صبوراً شكوراً ، واجعلني أذكرك كثيراً ، وأسبحك بكرة وأصيلا) .

فالوضوء البالغ السابغ أى الكامل التام المواصل على الوجه المسنون يجيء لصاحبه أن ينطق بالشهادتين ويدعو هذا الدعاء الشامل . وفى نطق الشهادتين وحدهما يجب أن يستحضر المسلم معناهما ، وأن يتقمص ما تستدعيانه ؛ من العبودية الخالصة لله ، والإقرار بربوبيته ، ووحدانيته ، وقدرته ، وعظمته ، وإحاطته ، وعلمه ، وسائر كمالاته ، والتصديق برسالة محمد خاتم النبيين ، لا يرتاب فى شيء من ذلك ؛ ثم إنه يعمل بمقتضاهما ، ويسلك بهما مسالك العبادة . وفى هذا الدعاء إقرار من العبد بربوبية الله وتصديق برسالة محمد كما ذكرنا ، وفيه أيضاً تنزيه لله وحمد واعتراف بوحدانيته ، وإقرار بعمل السوء وظلم النفس مما أوجب الاستغفار والتوبة ، وفيه رجاء أن يغفر الله لعبده ، ويتوب عليه ، ويسبغ عليه رحمته ، ويرزقه الطهر ، والصلاح ، والصبر ، والشكر ، ويلهمه أن يذكر الله كثيراً ، ويسبح بآلائه ونعمه فى كل آن .

وليست الشهادتان ولا هذا الدعاء بالكلمات يلوكها اللسان ، دون أن يفقهها الجنان ، ويتمثل معانيها ؛ فإنما استحب أن يختم بهما المسلم وضوءه ؛ لأنها تصله بالله ، وتدله على المحجة الواضحة فيما يقبل عليه - بعد الوضوء - من العبادة ومن السعى ، وتجعله ينشط باعترافه وإقراره إلى تحقيق ما تؤدى إليه . وهكذا سائر الأدعية .

وفى سبيل الزلفى إلى الله يشعر المسلم بقدر من الذنب فى حق الله ، ولا بد لمن يقر بالذنب أن يكفر عنه بالندم على ما فرط فى جنب الله وقصر فى الواجبات ، وبالتوبة النصوح ، وبالعمل الصالح يعينه الله على أدائه بفضل منه ورحمة ؛ ولهذا يحتاج المسلم إلى أن يرزقه الله طهارة النفس ، حتى تستوفى عبادته ومساعيه قسطهما من النزاهة والنقاء ، وأن يرزقه الصلاح حتى تكون العبادة والمساعى خالصة لوجه الله لا للدنيا الناس ، وأن يرزقه الصبر على إقامة طاعاته وسداد قرباته حتى لا يقصر فيها ، وأن

يرزقه الشكر على ما يقدم من طاعة ومن خير ، حتى لا يطغى ولا يظن أنه صاحب المنة والعطية ، وأن يلهمه الله ذكره كثيرا فى كل ما يعمل حتى يكون عملا مباركا فيه ، وأن يقدره على التسبيح بآلاء الله ونعمه بكرة وأصيلا ، وفاء لحق الشكر الواجب عليه ، فلقد تفضل الله عليه بنعمة الحياة ، ووفقه لأداء الطاعات ، ويسر له سبيل الطهر والصبر ، وأمده بأسباب التغلب على مواجهة الحياة وقهر نفسه الأمارة بالسوء .. وغير أولئك من النعم والآلاء ، التى يقصر عنها العد والإحصاء ولا يستوفيها الاستقصاء .

الحديث الثامن والعشرون

عن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « الطهور شطر الإيمان[1] . والحمد لله تملأ الميزان[2] . وسبحان الله والحمد لله تملآن[3] – أو تملأ ما بين السماء والأرض[4] – والصلاة نور[5] ، والصدقة برهان[6] . والصبر ضياء[7] . والقرآن حجة لك أو عليك[8] . كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها[9] » .

رواه مسلم

(١) راجع ما أثبتناه في شرح الحديث السابق (الفقرة الأولى – ص١٢٨) .

(٢) أي ثواب الحمد لله يملأ ميزان الحسنات يوم القيامة فترجحه ، فهي مقالة عظيمة الأجر .

(٣) أي إذا انضم التسبيح لله وتنزيهه إلى حمده فهما أولى أن تملآ الميزان يوم القيامة .

(٤) الشك من الراوي ، ومفاده أن الحمد لله وحدها تملأ الميزان فإذا انضم إليها التسبيح ملأتا ما بين السماء والأرض . وسبب عظم فضلهما ما اشتملت عليه (سبحان الله) من تنزيه الله و (الحمد لله) من التفويض والافتقار إليه . والله أعلم .

(٥) الصلاة نور : أي أنها تهدي إلى الخير والصواب ، وتمنع من المعاصي ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، كما أن النور يستضاء به ويمنع من التخبط . وقيل : معناه أن يكون أجرها نوراً لصاحبها يوم القيامة . وقيل : لأنها سبب في إشراق أنوار المعارف وانشراح القلب ومكاشفات الحقائق لفراغ القلب فيها وإقباله على الله بظاهره وباطنه . وقيل : معناه أن تكون له نوراً ظاهراً على وجهه يوم القيامة ، ويكون البهاء على وجهه في الدنيا ، بخلاف الذي لا يصلي (انظر صحيح مسلم بشرح النووي : ٣/١٠١) .

(٦) الصدقة برهان : أي تكون برهاناً للمتصدق يوم القيامة على بذله وعطائه ، ولقد سميت صدقة لأنها دليل على صدق الإيمان .

(٧) الصبر أنواع : منها الصبر على طاعة الله ، والصبر عن معصيته ، والصبر على نائبات الدنيا ومكارهها . والصبر ضياء : المراد بها أن الصبر محمود ، ولا يزال صاحبه مستضيئاً مهتدياً مستمراً على الصواب . قال : « إبراهيم الخواص » : الصبر هو الثبات على الكتاب والسنة . وقال « ابن عطاء » : الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب . وقال « الدقاق » : حقيقة الصبر ألا يعترض على المقدور ، فأما إظهار البلاء لا على وجه الشكوى فلا ينافي الصبر ؟ قال تعالى – في حق أيوب – عليه السلام ... : « إنا وجدناه صابراً . نعم العبد ، إنه أواب » (ص ٤٤) ، مع أنه « نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب » (ص ٤١) و« نادى ربه أني مسني الضر » (الأنبياء ٨٣) – (انظر صحيح مسلم بشرح النووي : ٣/١٠١) .

(٨) إذا تلوت القرآن وتعاهدته وعملت به فأنت تنتفع به فهو لك حجة ، وإن أهملته وأهملت العمل به فهو عليك حجة .

(٩) انظر الفقرة السادسة من شرح الحديث الأول (ص ٩) . والمعنى : كل إنسان يسعى لنفسه ، فمنهم من يطيع الله فهو يبيع نفسه لله بهذه الطاعة فيعتقها من العذاب ، ومنهم من يعصي الله ويطيع الشيطان والهوى فيهلك نفسه بمعاصيه ، وانحيازه إلى الشيطان والهوى .

الحديث التاسع والعشرون

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أنه سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : « لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسا ، ما تقول ذلك يبقى من درنه شيئا ؟. قالوا : لا يبقى من درنه شيئا. قال : فذلك مثل الصلوات الخمس ؛ يمحو الله بها الخطايا » .

(رواه مسلم)

اللغة : نهرا : النهر (بسكون الهاء وفتحها) مجرى الماء المتسع كالنيل والفرات ، والمادة تدل على السعة والكثرة : فسمي النهر نهرا لاتساع مجراه وكثرة مائه ، وسمي النهار نهارا لاتساع الضياء فيه وانتشاره . درنه : الدرن (بفتحتين) الوسخ الخطايا جمع خطيئة وهي الذنب .

النحو : لو أن نهرا . . : مر نظير هذا الأسلوب (ص ١٢) فارجع إليه . بباب أحدكم : شبه جملة يقع نعت (نهرا) . يغتسل فيه : جملة تقع حالا من (أحدكم) . ما تقول : أي ما تظن ، فعمل القول مجرى مجرى فعل الظن ، لتوفر شروطه ، فهو مضارع بصيغة الخطاب مسبوق باستفهام متصل به . وجملة الاستفهام قائمة مقام جواب (لو) كأنه قال : لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ما بقى من درنه شيء . شيئا : مفعول به فعله (يبق) . فذلك مثل الصلوات الخمس : جملة تقع جواب شرط محذوف ، والتقدير : إذا علمتم ذلك فهو مثل الصلوات الخمس .

البلاغة : أرأيتم : استفهام تقريري ، والمعنى : أخبروني لو أن

نهرا . . الخ . وجملة (لو أن نهرا . . الخ) مفصولة عما قبلها لشبه كمال الاتصال بين الجملتين (للاستئناف) ، كأنه لما قال : أرأيتم أي أخبروني — قالوا : عن أي شيء نخبرك ؟ فقال : لو أن نهرا . الخ . يغتسل فيه : أي في مائه ، سمى الماء نهرا على سبيل المجاز المرسل علاقته المحلية ، فالماء محله النهر . ما تقول ذلك : الإشارة للاغتسال وهو قريب ولكنه أشير إليه بإشارة البعيد لتعظيم أمره . فذلك مثل الصلوات الخمس : الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا مثلها في ذلك الماء يغسل الأقذار . فالتشبيه تشبيه معقول بمحسوس وسياق الحديث يشعر أن الماء يغسل الأقذار مشبه وهو المشار إليه بذلك لوقوعه قبل أداة التمثيل ، والصلوات الخمس مشبه به لوقوعها بعد هذه الأداة ، وفي هذا إعلاء لشأن الصلوات الخمس بجعلها أتم في وجه الشبه من المشبه (نظير التشبيه المقلوب) ، ويحتمل البيان أن المشبه والمشبه به كليهما على درجة سواء في وجه الشبه ، ولذا يصح وقوع أي منهما طرفا في التشبيه .

الفكرة : من رحمة الله بعباده أنه جعل طاعته كفارة لخطاياهم ، فالصلوات الخمس تطهر المسلم من ذنوبه ، وتكون سببا في إسقاطها عنه وتكفيرها ، فعلى المسلم أن يحرص على أداء هذه الصلوات ، ويوفيها حقها .

البيان :

١ — الصلاة عماد الدين ، وغرة الطاعات ، وموطن الحديث إلى الله ، بها يستقبل المسلم يومه بالطاعة ، وينهي يومه بالعبادة ، وبها يفتتح المسلم نهاره بمناجاة ربه ، ويختم ليله بالتهجد والقيام ، وفيها يصبح العبد ويمسي أقرب مايكون من ربه ؛ يخاطبه ، ويدعوه ، ويقر له بالعبودية ، ويستعينه ، ويرجو منه الهداية وتمام النعمة ، ويسبح بحمده ، ويستغفره ، ويقدم بين يديه التحيات ، والصلوات الطيبات ، ويشهد أن لا إله إلا هو ، وأن

محمداً عبده ورسوله، وأن ما أتى به من عند الله هو الحق، وأن الدين عند الله الإسلام.

وإذا أدى المسلم صلاته على وجهها، فأفرغ فيها لله قلبه، وأقبل عليه بظاهره وباطنه، جعل الله له صلاته نوراً فى الدنيا والآخرة، فهى تكون له نوراً فى الدنيا؛ لأنها تهديه إلى الخير والصواب، وتمنعه من المعاصى وتنهاه عن الفحشاء والمنكر، وتمنحه الإشراق والبهاء. وتكون له نوراً يوم القيامة، نوراً ظاهراً على وجهه، ويكون أجرها نوراً لصاحبها. وعن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال: من حافظ على الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها كانت له نوراً وبرهاناً يوم القيامة، ومن ضيعها حشر مع فرعون وهامان.

٢ — والمعانى التى تتم بها حياة الصلاة ست، وهى حضور القلب، والتفهم، والتعظيم، والهيبة، والرجاء، والحياء(١):

(أ) حضور القلب: بصرف الهمة إلى الصلاة. والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتبين المصلى أن الغرض المطلوب منوط بها، وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى وأن الصلاة وسيلة إليها. فإذا أضيف هذا حقيقة العلم بحقارة الدنيا حصل من مجموعهما حضور القلب فى الصلاة.

(ب) والتفهم: أن يشتغل الفكر بتفهم معانى ما يقرؤه من القرآن الكريم، وما يردده من الأذكار والدعوات. وعليه أن يدمن الفكر ويصرف الذهن إلى إدراك هذه المعانى، ويستدعى التشمر لدفع الخواطر بقطع موادها، والنزوع عن أسبابها، والإقبال على ذكر الله، فمن أحب محبوباً أكثر ذكره.

---

(١) إحياء علوم الدين: ٢ / ٢٨٩ وما بعدها.

(ح) والتعظيم : حالة تتولد من معرفتين : أولاهما معرفة المصلى بجلالة الله وعظمته ، والأخرى معرفة المصلى بحقارة نفسه وخستها وأنه عبد لله — جل شأنه . ويتولد من المعرفتين : الاستكانة ، والانكسار ، والخشوع لله ، وهذا هو ما يعبر عنه بالتعظيم .

(ى) والهيبة : تتولد من المعرفة بقدرة الله وسطوته ونفوذ مشيئته . وكلما زاد العلم بالله وبجلاله زادت الهيبة منه والخشية له .

(هـ) والرجاء : هو رجاء المثوبة وسببه معرفة لطف الله — عز وجل — وكرمه ، وعميم إنعامه ، ولطيف صنعه ، ومعرفة صدقه فيما وعد المصلين بالجنة ، فإذا حصل اليقين بوعده هذا والمعرفة بلطفه ومنه وكرمه انبعث من مجموعهما الرجاء لا محالة .

(و) والحياء : معناه أن يستشعر المصلى تقصيره فى العبادة ، حين يعلم أنه عاجز عن القيام بحق الله على وجهه . ويقوى ذلك معرفته عيوب نفسه وآفاتها وقلة إخلاصها وميلها إلى الحظ العاجل ، مع العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله وبأنه مطلع على سره وخطرات فؤاده .

ورابطة هذه المعانى كلها إيمان المصلى ويقينه ، وبقدرهما فى قلبه يكون قدر خشوعه وخضوعه وتقواه . تروى عائشة — رضى الله عنها — : كان رسول الله يحدثنا ونحدثه ، فإذا حضرت الصلاة كأنه لم يعرفنا ولم نعرفه » . وقال بعض الصحابة — رضى الله عنهم — : يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئتهم فى الصلاة من الطمأنينة والهدوء ومن وجود النعيم بها واللذة . وروى أن الله — سبحانه وتعالى — أوحى إلى موسى — عليه السلام : « ياموسى ، إذا ذكرتنى فاذكرنى وأنت تنتفض أعضاؤك ، وكن عند ذكرى خاشعا مطمئنا ، وإذا ذكرتنى فاجعل لسانك من وراء قلبك ، وإذا قمت بين يدى فقم قيام العبد الذليل وناجنى بقلب وجل ، ولسان صادق » .

٣ — إن المصلى يناجى — فى صلاته — الله ؛ كما ورد بذلك الخبر .

فعلى المصلى ألا يغفل عن ربه ، لأن الكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة ، فالقراءة والذكر يجب أن يقصد بهما التضرع والثناء ، وليس بمجرد تحريك اللسان . والركوع والسجود يجب أن يقصد منهما التعظيم والتوقير ، وإلا لم يعدوا أن يكونا حركة من الرأس والظهر والأطراف . والقيام والقعود يجب أن يقصد بهما المثول بين يدى الخالق فى تواضع وتذلل وخشوع ، وإلا لم يعدوا أن يكونا رجع الحركات . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حق الغافلين : « رب قائم ليس له من قيامه إلا السهر » ، وقال : « كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب » . وقال ـ تعالى ـ : « إننى أنا الله لا إله إلا أنا ، فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى » (طه ١٤) : وظاهر هذا الأمر الوجوب . والغفلة تضاد الذكر ، فمن غفل فى جميع صلاته كيف يكون مقيما الصلاة لذكر الله ؟ !(١) .

٤ — وحديث الرسول الذى معنا يضع المسلم مثلا من الصلوات المكتوبة ، وكيف تكون كفارات لذنوبه ، وأستاراً على عيوبه ، وأماناً له من عذاب النار ، ومن ثم تطهر نفسه ، ويرضى الله عنه ؛ فهى كالنهر القريب ، يرده الإنسان كل يوم خمس مرات ، فيغسل فيه أوضاره ، ويزيح عن جسمه أقذاره ، ومن ثم يطهر وينظف . وفى كلا الأمرين نظافة ونقاء ، ووضاءة وبهاء .

ولتعلم ـ أيها المسلم ـ أن كل حركة من حركات صلاتك وفعل من أفعالها يطلع عليه الله ، « الذى يراك حين تقوم * وتقلبك فى الساجدين » (الشعراء ٢١٨ — ٢١٩) ، وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إذا قام العبد إلى صلاته فكان هواه ووجهه وقلبه إلى الله ـ عز وجل ـ انصرف كيوم ولدته أمه » ، وقال : « إن الله ـ عز وجل ـ مقبل على المصلى

---

(١) إحياء علوم الدين ٢ /٢٨٥ وما بعدها .

ما لم يلتفت » وقال : وقال رب العزة : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين : نصفها لي ، ونصفها لعبدي . ولعبدي ما سأل . يقول العبد : (الحمد لله رب العالمين) فيقول الله عز وجل : (حمدني عبدي وأثنى علي) » .
وفي الخبر : « إن العبد إذا قام في الصلاة رفع الله ـ سبحانه ـ الحجاب بينه وبين عبده ، وواجهه بوجهه ، وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء ، يصلون بصلاته ، ويؤمنون على دعائه . وإن المصلي لينثر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه ، وينادي مناد : لو علم هذا المناجي من يناجي ما التفت . وإن أبواب السماء تفتح للمصلين . وإن الله ـ عز وجل ـ يباهي ملائكته بعبده المصلي » .

رزقنا الله القدرة على إقامة الصلوات ، وذكر أوقاتها ، وأداء أركانها ، والوفاء بشروطها ، وتدبر قرآنها ، وإتمام ركوعها وسجودها ، والتماس فروضها وسننها ، وجعل الله لنا منها قرة لأعيننا ، وطمأنينة لقلوبنا ، ووداعة لأنفسنا ، وهدى لأبصارنا وبصائرنا ، ونوراً يسعى بين أيدينا وبأيماننا .

الحديث المكمل الثلاثين

عن معاذ بن جبل — رضى الله عنه — قال : قلت : يارسول الله ، أخبرنى بعمل ، يدخلنى الجنة ، ويباعدنى من النار . قال : « لقد سألت عن عظيم : . وإنه ليسير على من يسره الله — تعالى — عليه : تعبد الله ، لاتشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » . ثم قال : « ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جُنَّة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما تطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل » ثم تلا [قوله — تعالى —] : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم ، خوفا ، وطمعا . ومما رزقناهم ينفقون * فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ، جزاء بما كانوا يعملون » . ثم قال: « ألا أخبرك برأس الأمر ، وعموده ، وذروة سنامه ؟ ! » قلت : بلى . يارسول الله . قال : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » ثم قال : « ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟! » قلت : بلى . يارسول الله . فأخذ بلسانه ، وقال : « كف عليك هذا » قلت : يانبى الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟! . فقال: « ثكلتك أمك ! . وهل يكب الناس فى النار على وجوههم — أو قال : على مناخرهم — إلا حصائد ألسنتهم ! » .

رواه الترمذى

الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٢٩٩ / ١٩٦٩